محمد علي فرحات

شمس على طاولة

يليه

بابل العصر و بيان الخوف



منشورات الجمل

شعر

محمد علي فرحات:
شمس على طاولة
يليـــه:
بابل العصر و بيان الخوف

محمد علي فرحات

شمس على طاولة

يليه

بابل العصر و بيان الخوف

شعر

منشورات الجمل

محمد علي فرحات شاعر وصحافي، مولود في عنقون (لبنان) ١٩٤٥، يعمل مدير تحرير في جريدة «الحياة» الدولية.

«بابل العصر» سبق أن صدر عن دار النهار للنشر في بيروت ١٩٧٨ و١٩٨١، و«بيان الخوف» سبق صدوره عن دار الشروق في القاهرة ١٩٨٤ وقصائده كتبت بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨١.

محمد علي فرحات: شمس على طاولة، يليه: بابل العصر و بيان الخوف، شعر

الطبعة الأولى ٢٠١٠

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

شمسٌ على طاولة

قراءة البياض

تنفضُ قطنَها على شعركَ

الزيتونةُ العاقر

ليأتيَ البياضُ باكراً

من الحديقة المسمومة.

وتكفي ليلةٌ واحدة

بمكعّبات نورانية

تتخذ شكل الهرم،

لنرى الرسالةَ

ولا نقرأ.

ولن يقرأ أبيضُ الشعر بلا ثلج ولا شيخوخة

القراءةُ لمن يبني نصباً،

يشقّ الفراغَ بسكين

ولا ينتظر النهاية الخاطفة.

شمسٌ في غرفة

نظارةٌ سوداءُ لشمس المدينة
تمشي على الرصيف.
على جسدها ظلال الشجر
وليس لجلدها ملمس واحد.

النافذة في مستوى الأغصان.
الزعفران يؤثث الغرفة،
لأن الشمس على السرير
في سلامها
تنطفئ.

سؤال

تركتْ لنا الحربُ سريراً
ونافذةً تطل على حطام
على شعارات مسَحَهَا المطرُ
كلوحة يرسمها طفلٌ ثم يهرب.

تركتنا الحربُ إلى بلاد أخرى،
لم تقتلنا.
خلّفت شوكةً بيننا وبين الأشياء.
لماذا لم نمت؟
سؤالُ الصبح والمساء.

نجاة

المسدّسُ على الصدغ،

وتكفي طلقة واحدة.

ما يمنعُ،

وجهٌ بعيدٌ على الشاطئ

يحضرُ في اللحظة الأخيرة.

حبيبةٌ

أم حبلُ نجاة؟

هذا ما يحدث كل يوم.

حزمة الضوء

من الأعالي حزمةُ الضوء، ومن حولهما الليل.

من الأعالي ولا يدري، ربما هي طائرة توجه كشافها بحثاً عن أشخاص هاربين أو عن عواطف مهربة؟

يسجنهما النور على الشرفة، وللحظة تبدو الظلمة محلاً وحيداً للأمان.

حزمة الضوء، بعد سنوات، يقعان في نورها الباهر، ولم يتعلما فتحَ مغاليق النفس على نور الدنيا.

يكتبُ بلا ضوء، وحين الكلماتُ نوافذُ يصمتُ كثيراً ويكتبُ قليلاً، ليبقى كهفه بعيداً من الضوء، من العيون. ذلك الكهف للعواطف والأفكار المقفلة.

يرى الماضي مهرولاً في الجانب الآخر من الطريق، حيوياً

كعداء المسافات القصيرة، وبعد حين قتيلاً هامداً، ثم يعاود رؤيته متحركاً مفعماً بالفرح.

لم يعرفِ له حالاً ثابتة، فأحاله إلى الرؤيا.

لا يستطيع موقفاً: أيعتبرُهُ ميتاً ويلقيه في بئر النسيان أَم حاضراً في الاحتمال.

وقد يحادثه فتستفيقُ جزرُ المحبة المتناثرةُ على البحر الأسود، أم يشيحُ ببصره ويتخيلُ ذلك البحرَ سطحاً بلا جزر؟

قليلُ السواد وكثيرُهُ واحد.

أيمكنه أن يصالحَ العالمَ ولا يخسرُ نفسه، يتركها للتمزيق من هنا وهناك؟ ولماذا يشكو التمزقَ هو الذي أراد سلام الآخر على فتات نفسه، على جروحها؟

لكن الحب ليس كهفاً، ليس ماضياً يهرول بعيداً، انه قوس السماء ينضم إلى المحتفلين في المكان العالي، يعطينا بسمتَهُ الملونةَ ويغمرُ دخيلتنا بتفاؤل دقات القلب.

نتناسى سيلَ الزمن إلى الهاوية لنربح اللحظة، نلصقها على

الحائط إعلان فرح. وعلى السور القديم نباتٌ يزرعُهُ الهواءُ المبلل وينميه.

ومن زاوية السور أغصانُ شجرة الجيران، نملكُ زهرها الأحمر، وجذورُها عندهم هناك.

مِروَحة

الوقتُ الأول

مُرهَفٌ عند رعشاتِ المخملِ والليلُ يتلبَّدُ خلفَ الستائر،
داكنةً تقتربينَ، تتكوَّنُ وترحلُ القبابُ في مجال النظرِ المسحور.
أَيَّ حُمَّى جَمَّعْتِها؟

وأَبحثُ عن ظلّي في مُنْعَكَسِ أنوارك، كانوا كُثُراً، قالوا
نحبُّكِ والكلماتُ تملأُ بياضَ الورق، يُفَتِّحُ الحبُّ نسائِمَ الأنوثة،
يُؤَجّلُ ما سيأتي. ليس في الوقتِ مُتَّسَعٌ، نمارسُ حرّيَتنا داخلاً ثم
خارجاً، ونقيمُ للحُبِّ جُزُراً في بحارِ الرغباتِ غيرِ المتحقّقة.

الوقتُ الثاني

جسدُ العينين يُبْطِنُ السرَّ يهبِطُ بين جدرانِ أربعةِ مداكِ،
وعوسجةٌ لو خَرَجَتْ قالت إنه الدمُ يَبزُغُ من قسوةِ النبات، لو قَمَرٌ

أطلَّ على مَسيلاتِ الجراحِ أَضاءَ أقماراً خَزينةً وبين الغيوم اختفى، وأوَّلُكِ المنتهى بينَ المَواجعِ العتيقة، كلاماً يلائمُ الدمَ، حروفاً تُمزِّقُ الأوردةَ من قراءةٍ تُمزِّقُ الأحلامَ، وحلماً يهبط قبل القراءةِ في وعدها.

وأينَ القصرُ لكِ مشهداً جانبيّاً، عندي الكرسيُّ العتيقُ، وأنتِ هفهافةٌ في بيتنا. وجهُكِ أم سوى الوجهِ منكِ، ويا طالَ ما رضيتُ طالَ ما بَعُدْتُ، وأسألُ أنتِ أنا نحنُ غيرُ ما امتصَّتْ منّا النهاراتُ، وليس الليلُ لسوانا. آخرُ دوائي آخرُ دائِك، والملتقى أنتِ، تَستَبِقينَ اللُقيا، نُفاجَأُ عُذْرَةً لعُذْرَةٍ في العَطَفاتِ الجبالِ، حنينَ ما سيأتي...

عروقُ الحجر

يكون السرُّ وينفجرُ

والثمارُ العسلُ

على التراب.

وعلى الصخر مصلوبةٌ شجرتُنا

عروقُها عروقُ الحجر.

وما بين الجسد والتمثال

ينفجرُ السر

والثمرُ البعيد.

لن تكون قصيدة الرضا.

وعلى الطريق اللامنتهي

واقفا أكون، غامضاً

جرحي معي
تتحركين على طريقي
من يسارِ إلى يمين
ومن يمينِ إلى يسار
تكونين وجرحيَ
النضرةَ والشحوب.

ولكن، لستِ منهم
من أهلك أنتِ من أهلي
جبالنا المطلاتِ على بحرِ
وتكونُ لنا العربات
الى حقول العنبر.

هل نجوتُ من التجارب
هل ننجو
في قصيدة الرضا،
وأبدأ من نشيدِ حبيبِ ونشيدي؟

أهوَ الحب أم القصيد؟

الحبّ الكيانُ الاقامةُ، والقصيدةُ الكثرةُ والعبور،

وليس حباً هذا الذريعةُ للكلام

كمن يشتري قلقاً

يلوّنُ روحَه الكسيح.

الحبّ السفينةُ بين العاصفة والعاصفة

معنى الوجه من الوجه

فرحٌ للروح أغلى من جواهر

والحبّ النجاةُ...

... إلى ليل النجوم الحمر

حمرةِ العطر الوهجِ الهدايةِ الحقيقةِ وحمرةِ الجسد،

ونسهرُ في حنايا جرحنا

نعليه نخفضهُ،

تتعلقينَ بكتفٍ بجذعٍ

ثم نفلتُ إلى سحيق.

والنجومُ الحمرُ

للوردة الجريح

في الطابق الثاني.

والنجومُ برهاني

نجمةٌ ونجمةٌ في مدار

ووجهٌ لأكثرِ الصمتِ ولهُ أكثرُ الكلام

أنفُ سلالة الرعاة

وعينان لبلادي

والضحكةُ بلا زمن.

نجوتُ وما نجوتُ

فاتحاً خاشعاً،

أقسو وأحنو،

صوتُها الهادي

وصورتُنا

عروقُ الشجرة أم عروقُ الحجر؟

لا ينتهي الطريق

لأنه السرّ ينفجرُ

في طابق ثان

في مدينة بعيدة

لقاء

ولم أكن أنا يا قهوةَ الروح.
كنتُ والله معك
خفقةَ الخلق وفرحك،
صوتَك صوتي،
مبتدانا ومنتهانا.

كيف أكونُ أنا
وما من صوت؟

كنتُ وما كانَ صوتي
فما كنتُ،
ولم يستحقّ الأمرُ دمعاً

فهلّ دمعي عليكِ
قطرةً قطرةً،
أنا الكوخُ
يا فلاحتي المتمدنة
ومطرُ السطح الفقير.

وما كانَ صوتي ولا صوتُك،
كيف يختفيان
وقد التقينا؟
واين دُكْنَةُ ما حولَ العينين،
تعبُك الحبيب؟
وجهُك هذا أم تمثالُ مخزن الثياب؟

وعيناكِ بلا وجهٍ
بلا تراب
ومن طفولة بعيدة.

دمعتان من لهفتي

تخلّقَتَا عينينِ

ساخنتين

ساخرتين

ساحرتين،

وما كانَ صوتي ولا صوتُك

كيف يختفيان

وقد التقينا؟

دمعة الغريب

(١)

ضيّقٌ شباكُ «غريكو»

ويتّسعُ لوجهينا،

لا أراكِ لا ترينني

نرى برتقالَ الشمس على الطاولات

وعشاقاً يفترقون

في منحنى الطريق.

(٢)

مطرٌ في عيوننا

ونادلاتُ الساحة المبللة

يلجأنَ إلى بيت «غريكو».

الرسامونُ يحمونَ لوحاتهم بالنايلون،
واللوحةُ الخطّيةُ هناك:
«كلّ حال يزول»،
من بيتي الأبوي رأيتُها
ومن شباك «غريكو».

(٣)

ويا ربيعي في «توليدو»
هل من عرّافٍ رآنا
يرمينا بورق الخريف؟
«كل حال يزول» من ساحات العالم.
وفي ساحة «توليدو»،
غريبةُ الدمع باقيةٌ
ودمعةُ الغريب.

مسافة

يتقاربون: أبيضُ لأسود

يتباعدون: أبيضُ وأبيض.

المخاطَباتُ على وحلٍ طريقٍ

على بَشَرٍ

يبدأون من صِفْرٍ

من سَفَرٍ فوق ترابٍ يزداد رخاوةً،

كما في قصص العفاريت.

في الباحة الطينيّة تُغرِّبُ ويُغرِّبون ولا مرايا.

الأصدقاءُ ضاعوا وأضاعوا.

يدٌ تقول: أنتَ ليسَ أنت،

هُلامٌ حاضرُكَ
رخوٌ وفوق أرض رخوة.

الجهات أحلامٌ مقوَّسة.
أنتَ والآخرون ومسافة.

[يحرك جسدَهُ بحقيقيّةٍ.
يتلمّسُ حركةَ المكان وحركتَهُ في المكان.
ثم إن الرجل يخلع على الأشياء أسماءً.
عالمُه الصغير حقيقةٌ، حقيقتُهُ هو البادئُ
من جسده. ثم إن الرجل يسري في
الصباحات والأضاحي وفي قبو الليل
حتى الوصول: ثمة جدارٌ، وثمةَ الباحةُ
الواسعة].

محاطٌ بالسور الكبير
أنت والآخرون، ولم تعتدِ النجوى...

ها يَدُكَ متصلةٌ بالجسد، لسانُك معلّقٌ بآخر الفم
والصراخُ لهاةٌ وأوتار.
إنك إلى الجسد تعود،
ورخوٌ هو الجسد فوق أرضٍ رخوة.

[لن يعاودَ الرجلُ الخطابَ. إنه يتلمّس
جسدَه، يكلّمُ لسانَه، يصرخُ لصدره،
ويبدأ الرجلُ: هُوَ هُوَ].

من ركام كلامك القديم
هذا المدى السُّورَ
تهدُمُ،
وحين العالُم الأرحبُ
تكون بينكما مسافةٌ
ولا تنسى.

الأصل

إلى عافيتنا الجمالُ، ينفذُ من المسامّ وتضيئه نارنا في الحصار، يعلو غناء الروح لأن الكلام في العجمة مواويلُ القرى.

وفي القرى عروقُ السرّ تحت التراب تعقد في عجينها الخلقَ الجديد، ولم يرها أحدٌ تطل من الطين خضراءَ، أحلّ الله العمى في لحظة الإطلالة.

وحين تستعلي قامات القرى ينتعلُ الرجالُ المحبون الغيمَ، تاجُهم السماءُ لأنهم أُعْطُوا السرّ، يرونَ الأخضرَ في أحمر التراب في أصفره وإكسيرَ الإيمان في الأصول المنسية.

أسماء القرى حروفٌ ضيّعها المقيمون لكنها تطفح عفوَ كلامهم. وحين أتى جنودٌ كان البحرُ القريبُ عاصماً والشراعُ الغيمة، تأتي النعمة في لحظة الخطر العظيم، ويا طالما تقادم العهد على وارثين ما عرفوا أجداداً بنوا سدوداً دونهم والخطر.

تعطي الأرض غلالها والروح يغذّيها غناءٌ غيرُ مفهوم، من حيث لا يدرون.

بيوتٌ من صخر يصل بيانُها بلا قاموس، لأنّ القاموسَ ضاعَ بين الذاتِ والذاتِ ومن ضياعه تنفذُ الجيوشُ وتغزونا.

هؤلاء فلاحو القرى القديمة يتكلمون قليلاً، كلامُ صمتهم لبنانُ، يعرفونَهُ سرَّ الطلعة الخضراء من الطين والسدَّ الناري بين عيون الأطفال وحراب الجنود.

تكبُرُ مساحةُ الدنيا ولبنانُ الأصلُ ينكفئ، يعرفُ لكنه يُبدي عدمَ المعرفة، وجبالُهُ تُنبت الذاكرةَ المتجددةَ كلَّ عشرٍ، كل مئةٍ، زهرةً يعرفها أهلها.

والعاصي لبنانُ ينفجرُ في فضائح العصر مطلقاً لهيبه القدسي:

مدافعون نادرون

كلامُهم نقيضُ المضمر

نادرونَ لا تعرفهم

أو تعرفهم في التجلّي

في جلسة البئر

في تفتح التين

في ضوء يعلو العتبة

وضوء قبو البيت

في صباح الشجرة يتلألأ.

سرّه قريبٌ

وفي ضجة الإعلان يخبو،

ومنتهى تجليه الترابُ،

طلعةُ الأخضر في الترابِ،

وفي سدودِ النار.

بابل العصر

كرةُ الكلام

يا شعلةَ النهار التي لا تُرى

يا لهبَ الأعماق. . . إنّي هنا

جَوْعة الروح من ألف عام

وتهجُّدُ الحبس القديم،

أرى في عتمة العيش

طلعةً عبوساً

في زمن الهياكل المتجولة.

*

. . . وانا أرضاكَ أباً

لا أبَ لي

ولَوْعتي ترومُ لوعةً

فالحزن في الكثْرة نهرٌ

سباحةٌ في برْدٍ خوفَ البردِ

انتحارٌ خوفَ الموت

وجثةٌ خوفَ المرآة.

لا أبَ لي

وأبكيه أباً مات قبل الخليقةِ

كان سماءً، كان نجماً

وأحياناً كان الصاعقة.

*

.. وتأتي، من أنتَ؟

أصبُّ في بئركَ حريقي

الشدّة فوق النون الثانية

وبئرُكَ تنيّن فاغرٌ بالنار،

يا وحدتي

تأتي،

أنا... وأنتَ التّكرارُ

والكلامُ كرةٌ أرميها وترتدُّ،

يا كرةَ الثلج يا حلمي

تكبُرُ تكبر تصير كوكباً

أَنقشُ عليه الأسماءَ الحسنى.

يا حلمي

تصفعني المرآة.

*

قلتُ أرميكَ بالويل،

أنفيكَ وأرحلُ منكَ اليكَ

علَّ مسافةً ـ رحلةً تغيّرُني

جديداً أراكَ،

أبكي على منكبيكَ

وأستسْقي منكَ الدمعَ

ألملمُ القهقهات من حلمتيكَ

وها شمسٌ تضيءُ شمسٌ حريق

وأنتَ تبعُدُ تبعُدُ

أُنكركَ

أُتعتعكَ في نفسي

وألعبُ لعبةَ خلقٍ جديدة:

أجمعُ أبراجاً طلاسمَ أياماً ونساء حواملَ.
أُحيي ألعابيَ بالومضِ،
حركةً
وهمَ حركةٍ،
علَّ الانقصافَ يُظهر السرَّ ـ الحقيقة
يحمل فرجَ الطريق،
وأُنكرُ المرآةَ
أَعودُ إلى الصفْر المبارك
أُعمّرُ ملكوتي.

(١٩٧٣)

مهاجر

(الى محمد عمار)

يسبتوي عندكَ التَقاطعُ والانطلاق
تُحبَسُ في الداخل
ولا تأتيكَ أيّامُنا أيامُنا.
مَحوناكَ من ذاكرة الفصول
وخلفَ توالي الأيام
يكمنُ سرك الخفيّ،
تفاجئُ استمرار الوجود
وتُخرجُ أزواجَ الصّدفة.

رحلتَ، سلامٌ عليك من رطب القلب واحتياط العواطف.

وعُدتَ فأهلاً إلى بيت جدّكَ وأبيك.
عَراكَ الدفءُ بين الوصْلةِ والوصلةِ
ورُحتَ تفركُ دمعَ العيون،
تُلاعبُ زوايا الرصيف
وترسمُ للشارع حدّاً جديداً
تُرفرفُ معَ أعلام الدوائر الرسمية
وتحفُرُ سرّ الزهرة في الاسفلت
رابضاً راقصاً طائراً
ثمَّ أزرقٌ يحتويكَ وتمّحي الحدود.

(١٩٧٣)

تعب

الليلُ على حدّ القمر يتفجّر بياضاً
وأنتِ النور الزبَدي يرغي
يتركُ على ضفاف الرّوح شهوةً ترابيّة.
وعندما تفتَحتْ عيناكِ
كانت زرقةٌ كامدة
كانَ رماد،
ورُحتُ أُراوحُ بين النعاس واليقظةِ
أقضُمُ حامضاً منطفئاً
وأُسْلمُ للريح الساخنة السوداءِ
أَعنّةَ روحي ووِقفةَ الجسد.

بي همودُ البحر ماتت أسماكُهُ

والأرضُ لا تغور.

كان يُحيي

وهو موتٌ ينتظر موتاً

سكون،

بي همودُ الكون في فَلَكٍ أسودَ بلا عيون.

وتقتربينَ حدُّكِ حَدّي،

لونُك زهرةُ الوعد

وعيناي انطفاء،

أتركُ على معصميك لهاثيَ الفاتر

لا الشوقُ لا اللهفةُ

وأنتِ النور الزائل عن أرضي

سواءٌ كنتِ

سواءٌ غابَ ظللكِ الأثيرُ

ماتَ مات.

بين الصحوِ والاغفاءةِ

لا الحلمُ ولا الفعل.

تطبِق الذاكرة بابها،

يدخلُ العالمُ حدودَ الجمجمعة

ويبقى وَجيبُ الدم في العروق

أنشودةً رتيبةً لا تنتهي.

(١٩٧٣)

أسوار الغرب والنوم

(الى محمد العبدالله)

حين تُشعلُ القبائلُ حروبَها باحثةً عن أسباب الغزو
في الكتب العقائدية
تتابّطُ شرَّكَ لتصرعك رصاصةٌ من هنا
وثانيةٌ من هناك.
أيها الصوتُ الطالعُ من الذاكرة
كضوء الشموع في سطوع القذائف.
اللصوصُ يلبسون مسُوحَ الأنبياء
ودمُكَ يبحثُ عن أرض جديدة

I

الرّماةُ والعمالقةُ يجرحونَ الزيتونَ الشيخَ
في الأرض الخصيبة.
الاوروبيُّ يرتَزقُ في شركة «كروب».
مُجدَّداً أَرتزقُ في أكل لحم ولدي
والرجلُ A ينقطُ على الحروف
ويستعيرُ حروفَ اللغات الأخرى.

II

الرجل B يتدخّلُ في حدود المعدّاتِ التي لا يملكها.
الديبلوماسيّةُ رفيعةٌ وسيئة الانتصاب،
تلتوي كشجرة نخلٍ تظلّلُ جماعة الرجل C
التي تحرقها الشمس.
(ها إنّ المحترقين يتبخرون بفعل رحلاتهم السابقة إلى عرش
البحر)

III

الوسائلُ السويسريةُ تلوّح بمنديلها الأبيض
ويبقى منها صدى الجيران.
أصبحت «ماينهوف» زميلةً للرجل D
ولا غبار على عواطفه
فهذه الشؤونُ ليست من اختصاصه.

IV

الفولكلورُ يجوع والرجالُ يأكلون المعلبات
ومن تبقّى من المدنييّن
يسمعونَ نشرة الأخبار
وينتظرونَ سماع نشرة جديدة،
ساعاتُ الوَأدِ تتمسّك بالرقبة.
ليس زماني هذا الزمان
والخلفيّاتُ الاخوانيةُ راضية
باسم الذي راح ولم يرجعْ
أَطلبُ أسبانيا

تموتُ قريتي

وتتهدّلُ حمامة السلام.

V

صوت «إيفون» يطلعُ من السجن الانفرادي

جبهةُ «إيفون» تظهرُ وضّاحةً في السجن الانفرادي

الجبهةُ تقع فوق الحاجبين،

ولكل رجل جبهتُهُ وجبهةٌ لكلّ امرأة.

يتعب الرجل E فيحلّ لجنة التصفيق العليا

(انتقلت مصطلحات الحرب إلى علم التشريح)

VI

تهدّمت الجسورُ بين الوقت والكوفيّة

وسئم لوزُ قريتي أسوارَ الغرب والنوم،

الموسيقى تتلاشى في الغبار

والضيافة توجّهُ لومها للثوار

فالمهجّرون يسكنون صفحات الجرائد

(رحمةً بعزيز قومٍ ذلَّ ينزلونه ١٢ أسود)

VII

غفا صديقي على حافة الغروب وذرفَ دمعتين،
دروبُ القرية تلبس أكفانها الفخّارية
وسروجُ الأحصنة تضيقُ بمؤخرات الفرسان.
الليلُ يقدم واجهةَ عَرضه البليدة
حالماً بالرجوع إلى ضوء شهيّ.
(الهوى يجرحُ لساني وقلبي مرتبط بعقد إيجار)

VIII

أَجمعُ شتات وطني
أَنسجهُ من شجرة الياسمين والليل الملون والصحافة الفنية
وطيورِ البقاء المحنطة،
من ضحكٍ قليلٍ وسلام غير عادل ووافرٍ مَن الأقنعة
وشمسِ «فان غوغ» الملتوية.
وأَخلدُ إلى نوم عميق حتى يرجع الصلحُ سيدُ الاحكام

من عيادة الأمراض الجلدية.

(ثم يحاكمون «الإفشين» وتنتهي إلى الأبد ثورة «بابك الخرمي» في بلاد الفنادق).

(١٩٧٦/٦/١٠)

بالامايكا
نشيد الأرض الكوسموبوليتية

(الى المهجرين)

*** رسالة أولى:**

حبيبتي... هاكِ الكتابَ الآخر، حروفَ العمر الملونة،
اللوحاتِ البلاستيكية للبنايات الهزيلة،
والليلُ ملتقى الشعاع الآتي والشعاع الذاهب
محطةٌ زنجيةٌ لشهوة النور.
بلادي الحجارةُ القائمة ذاتُ الهندسة المحكومة بالصدفة.
الكفّار والقديسون. البورجوازيون الداخلون إلى بيت الدعارة
يُخفونَ وجوهَهم.
وجهاءُ القرى المأخوذونَ بالتنويعات المدنيّة.

المرأةُ المتفتحةُ على النساء الحائرةُ بين ثوبها وألقِ الجسد المتوهج.

حبيبتي... هاكَ كتابي الآخر.

*** النشيد**

بالامايكا

تتراقص أوتاركِ السوداء في ليل برجِ حمود ويتحرّكُ الرجلُ مأخوذاً

برحيق الخمر والتوابل.

السكارى يأخذون أماكنهم في الحانة بثبات ورؤوسهم تتمايل كبندولِ الساعة... دِنْ.. دَنْ...

ومع كل صوت يتولّد زمن جديد وبلاد متجددة.

«أنترانيك» و«أدهم خنجر» وصراخ باعة «اللوكي» وباعة الحظوظ الخائبة.

يجلس صاحبي، يقذف روحه القديمة من نافذة الحانة.

يولدُ مرة جديدة مع كل رشفة خمر،

يُنشدُ ويتفلسف ويبتذل،

يخترق حجبَ الزمان ويوجهُ اللومَ إلى قدامى الثوار على أخطائهم.

من اقبية برج حمود يشاهد صاحبي الزمانَ القديمَ المرتمي في القيعان،

وقليلاً يلمحُ السماءَ الباهتة التي تخيم فوق الأبنية القابلة للانهيار،

وفي التجوال بين الأزقة يتأصّل المارّة

في تراب هذه الأرض الكوسموبوليتية.

*

بالامايكا

يأتي اليكِ، يكتبُ على دفّتي كتابه سُورةَ الموتِ والضحك

وئيداً يناشد عذارى الغابات حجّةً للخيانة

والأطفالُ يهيمون تحت الدَّوالي

حالمين بالعناقيد البعيدة.

يقول: يا ليلُ متى تأتي يلفّني سوادُكَ وأحلم

أنّ وراءَ حلكتكَ وطني المستعاد.

يا ليلُ قُلْ سرّكَ وارحلْ أو أبقِهِ في جوفك العميق

فالجهرُ في هذا الزمان يكون ممالأةً
والتيار يشتري موتَكَ ويهبكَ حياةً آليّة.

هوَ السيدُ القديم يقف على عتبة البيت الأبيض،
يحمل سوادَهُ خجلاً على الجبين وتحت الخاصرة،
والشرقُ بعيداً عن مرمى العيون
يُخلي مواقعَهُ لاقتحام الحدقاتِ الزرقاء
ويحبسُ تراثَ الأجداد خجلاً في المغاور.
البعضُ يأكل البعضَ والكلُّ راض لأن النظامَ لا يلتفتُ إلى الجزئيات،
وتبقى السماءُ زرقاءَ مهما لبستْ حسناواتُ بلادي الحِداد.

دمي ينتظرُ النهايةَ على رصيف الشرق
والقلبُ يخفق كالأعلام الممزّقة فوق المؤسسات العامة المحترقة.
الى جهنّم بكل المثاليات، فقدنا ذكورتنا
ولم يَعُدْ جائزاً التفكيرُ في تربية الأطفال.

السهوبُ تزداد بُعداً،

ونظري يزوغُ لمرأى الغيب الرمادي.

*

بالامايكا

يشكو ابن «العديسة» خوفه من أطفال «مسكفعام» المتوحشين

يرشقون الحجارة على رؤوس شيوخ القرية الجنوبيّة.

يستمع ابن «الاسكندرون» وتتحركُ حدقتاه الخضراوان

يتذكّر الجوعَ الجميلَ فوق تراب بلاده الأصفر

الذي يهبُ الغلالَ للأغوات والمحتليّن.

يأتي اليهما الأرمني بتراثه التشكيلي من اللحوم والتوابل،

يتوحّد فيهم المظلومُ ويستشرفونَ آفاق البحر

حيث يتلاقى الغَيْب بالحلم

ويتعاكس وعد السفر مع رغبة الانزراع في الأرض ـ الأم.

يصرُخ واحدُهم: اللعنة... ضعْ ربعَ ليرةٍ في «الجوك بوكس»

وأَسمعْني «أو كابيتو كيتيامو» فإن دمعيَ راغب في السقوط.

أيها الليل الذي يلف الأصدقاء

أعيشُ حنانَكَ ويقذفُني الزمان فاحلمُ بك ذكريات.

لا المرأةُ تغويني ولا الألوان.

سحرُكَ يحتلّ القلب والروح.

أنت الذي يربطني بالقاع

وينشرني في عالم الفقراء الواسع.

يا سفير الحقيقة الممزّقة

تجمع أشلاءها من كل شعب وتوحّدُها في برج حمود

نحن نعيش بين ظهرانيكَ جزيرةَ ثباتٍ جميل

وأنشودةً سرّيةً في القلب.

*

بالامايكا

غيراغوسيان يسكن بين العميان ويرسم.

عبد الحميد يبيع الدجاج في سوق النبعة

وفي أوقات استراحته يؤسسُ الفنّ الحديث لجبل عامل.

فوزي يحلم بكل شيء

ويبقى بينه وبين أي شيء مسافةٌ ضئيلة.

صالح يحمل جنونه في الأزقة

ويطلقه صفّارةَ إنذارٍ تُجفلُ المارّة.

عمّار يرسم الأرصفة حدوداً بين قاراته الصغيرة

ويستعدّ دائماً للانطلاق كمركبةٍ بلا ضابطٍ ولا مُوجِّه.

الساحلي يبقى هناك ممثلاً فوق العادة لتراب الاسكندرون

في أُمم برج حمود المتحدة.

أمين في المقهى يفتّش عن زبائنه القدامى،

انه يربح كثيراً ويقول كلّ ليلة:

أين أنتم أيها النصّابون الجميلون؟

*

بالامايكا

يا نبعة

على رصيفك ولد الحلم وغاب بين الأزقة

وحين ابتعدنا عنك رأينا أحلامَنا يترجمُها الآخرون

انتهازيّة ومنفعة.

يا نبعة

ها نحنُ في نَزْعِك نَعدُّ الساعات نحصي الدقائق

وربّما معك بعد ثوان نموت.

وتبقى الضلالة تحكم العالم الكرتوني الذي سيبنونه

على أشلاء أحلامنا وفنوننا.

لا تموتي يا نبعة

حتى نستعيد فيك أيامنا القديمة.

*

* رسالة أخيرة:

يُشرقُ الوطنُ نديّاً من خلل الفوضى

مخلوقاً جاحداً فضلَ الوالدين

نقياً فريداً

والشمس تحضنه أماً جديدة.

يا وطني

أيّها الحلمُ العسيرُ التحقيق

أجمع أشلاءكَ من زوايا الخرائب

أُعيد تأليفكَ من الحُلى الضائعة.

إيماني في القلب

وأملي يكحل الأهداب

ويلوّن جميع الآفاق.

(١٩٧٦/٦/٢٣)

خريف

الرحيلُ ورعشةُ الخريف القديم وعيناكِ تغمضان،

البحر يحمل زرقته بعيداً

يترك على حافة روحي رماداً.

إنها ساعة الحزن.

الليلُ المشتهى يهبطُ هوَساً جميلاً

وحين أفقد المرآة

يفلت الجنون من القفص.

*

إنهم يتساقطون

إنهم يهبطون من الأصول ويتوزّعون مع الرياح.

عليٌّ جبلَ قلبه بالطين وتحصّن بالأرض

وأنا يعتريني الخوف والتشتّت،

أُحب التراب والظلّ الساقط على التراب

والإقامةَ فوق التراب وأبكي عليه.

*

بعيداً عنكِ يتفرّق الصوت في زوايا الغرفة

يسيلُ حناناً على أشيائك الجميلة.

وحين تخطرينَ فوقَ أفق الحلم

أرسمكِ على حدقتي رؤية لا تنتهي.

*

لا صدرَ لي لأحميك

وجسدي مادةٌ للتذكار

تتنقّلُ بين خرائبك الجليلة.

أيتها الواقعة بين الوعد والوعد،

طالت بي الايام وأنا أشهد مصارعَكِ

مع مجيء الجيوش ورحيلها

تتناهبُكِ

تحمل أشلاءكِ إلى بلاد الشموس المحرقة.

لـم أبقَ ابنُ ظلالك وحواضرك

انني بوّاب مضجعك المنتهك

أحملُ بيارقهم

وأثبتها في صدري المثقوب حزناً.

*

فقدت القبائلُ حبّها للهجرة وتعلقتْ بأوتادها،

نبتتْ للوتد جذورٌ واستحال شجرة،

في ظلّها أحبّ الأطفالُ أرضهم

ونسجوا من ترابها جلداً

ومن زهورها هالةً للأرواح الجديدة.

هكذا انتزعنا قلوبَنا،

وضَعناها على المفارق ضامرةً

كحصانٍ مهاجرٍ في الريح.

*

هو الموت آتٍ يحمل شروطَنا وخطايانا

لكنّ المعيار خارج أيدينا.

وما زلنا نبكي آزالَ الانسان والعالم دون تفسير.

يُغرقُنا في الأسى هذا العزفُ الدائم

والصراخُ الصاعدُ من موج البحر وليل المحبّين.
.. ويطفحُ ميراثُنا القديمُ:
رفضُ النفس حتى الرماد.

*

هل ترَيْن؟
القافلة تسير نحو البحر
ومَنْ لا يتقنُ السباحةَ يغرقُ أو يرحلُ إلى الصحراء.
حبيبتي
أعطيك ألفَ موت وألف ابتسامة
قد خسرتُ وطني الراهنَ والمحتمل،
وقفتُ على جسر يربط جبلين محترقين
وتحتي الهاوية.
وتبقى دموعك ملح الأرض
وزاد الأيام الآتية.

(١٩٧٦/١٠/١٧)

مرايا الزمن الأخير

تَطلُعُ من الخرائب هازجاً بالسلامة

تُرنّمُ على العتبات المحطمة تنويمةَ أطفال يبكون تحت المطر والريح.

إنها الحرب،

تركوا كلّ شيء ورحلوا

ينتظرون التئامَ الجراح الكبيرة

وأنتَ تزدادُ اصفراراً كلما تمزق الوطنُ

وابتعد المحبّون.

انها الحرب،

أيها الشاهدُ أيها البحرُ

ألمسُ في صفحتك خدَّ الموت

أتمرّغ في رمادك.

يتلوّن الجسدُ بالمعادن المحترقة
وأبداً لا تعرفُ الشمس طريقاً
الى عظامي المصفحة.

*

(عليٌّ جبَلَ من الطين وطناً
أذابتْهُ ماءُ سماءٍ بلا آلهة،
المعادلة صعبة
وعليٌّ يحلم بالماضي يحلم بالماضي
هكذا تعلّم: الثباتُ خوفَ الحركة الضارة
والفكرةُ الأليفةُ خيرٌ من المغامرة.)

*

أَيّ قدر قادكَ إلى الحصار
وأنت وارث التفلّت القديم؟
أتيتَ، على خاصرتك زنّار أفريقي
وعلَتْ رأسَك قبعةٌ عمالية،
قلتَ لا يُقتلُ الانسان بلا سبب
ووجدتكَ حول مائدة العميان تموت.

كانت الأم تحمل كتابها القديم

وتتذكرُ الأبناء البعيدين

اتفقَتْ مع الموت على هدنة للصلاة والتأمَل،

فأتاها فأساً شجّتْ رأسَها

وعيناها توجّهان الدهشة

الى جهتين متقابلتين.

هل تتعانقُ الفأس والرقبة؟

*

نمضي إلى عالم لا يفرّق بين السكين

وحبّة الحنطة الجارحة.

نبيع ما خلّفه المحاربون

في سوق النخاسة.

أيها البَوار الجميل

أيها البشر.

*

زمنُ الملاحم ولّى

وصار الموتُ لعبةَ الخبثاء،

تصرخُ في أقبية الوثنيّين

تقرأُ القصائد التي نظَمْتَ

وتستعيدُ همومك الصغيرة،

تقدّمُ البراءات ولعنةَ آبائك. . .

*

كان يختمُها بالأمل قصائدُه الماضيات،

لم يعرف أن النهايات فاجعة،

والقفزَ بين الحالة والحالة

يكون فوق جثة أو قلب محترق.

كان يرفعُ رايةَ الأمان

وها هو يتذوق نكهة الموت الجماعي

يتدخل في أسرار وداعه الآخرون،

يأتي من يضعُ أمامَ عنقه الذبيح مرآة

ويبدأ رتق الأوردةِ الممزقة.

*

واحدٌ بقي للحياة،

ضاع بين قوة الجسد وشيخوخة الروح

الزمان البطيءُ زمانه

ومهما حاولَ فإنّ غصّةً في القلب تبقى

ويبقى وحيداً

يناجي حبهُ القديمَ وموتَهُ المرتجى

كمن يتهاوى على فخذ امرأة

باكياً فحولته الضائعة.

*

(السيّدُ يكتب كثيراً هذه الأيام

يشقلب الكلمات كمن ينتقي حبة فستق ناضجة

يبحث عن تعبير لا يؤذيه ولا يمثّله،

لكن نفسَهُ تتساقط

قطعةً قطعةً

مع نسيج الجُمل غير المقنعة،

وكثيراً يقفُ بين اللفظة ونفسِهِ القديمة

يتجاذبه قطبان:

الضميرُ المستتر

وأحرف التأكيد المتراكمةُ بين الكلمات الميتة)

*

يا من تقودُه الخطيئةُ الصغيرة إلى الجحيم.

إعْلَمْ،

أن الطهرَ لغةٌ لا يتقنها الاّ الصامتون.

(١٩٧٦/١١/١٨)

بابلَ العصر

إنها بدايةُ حربنا الخاصة

حيث تتوحّد الدموع نهراً يغرقهم

ويطهّرُ منهم الأرض.

نحمل مجدَنا ـ ذُلّهم على الأكتاف

ونُعلِّق رايةَ المحبة على حدود رسموها بالرغيف الحرام

والطلعة الباهتة.

نتسلّق سُلّمَ الصليب

نتدلّى فداءً لدماء أَروتِ الأرض خطأ

وأرضٍ شربتِ الدم عطَشاً

وأنبتَتْ غابة الأشواك.

وحين نحني الرأس ألماً وحباً

يأخذنا نواح الندم الآتي من خلف الجبال.

تقترب أصواتُ الذين ينفضونَ جلدهم القديم

ويرسمون شارة البراءة على الجباه.

كانوا يسقطون على حدّ الجريمة والغناء،

جيوبُهم مثقلةٌ بالهدايا

وآذانُهم باللعنات.

فَقَدوا مهارة القفز في البراري

وفرَّتْ منهُمُ العصافيرُ وحشراتُ النبات،

عادوا إلى بوّابة الجحيم.

مَعادُ الحرب أتى وارتضَوا المصير،

بدأ التزاملُ الغريبُ والهذرُ بلغات غير محدّدة.

هي بابلُ العصر

والسّهمُ عاد بقطرة من دم السماء.

انهم يثرثرون ويعبّرون بالإيماء

(نعتذر عن أخطائنا الصغيرة

ونُصلب عنكم أيها المداهنون)

أحدهم يتبذَّلُ فوق بقعة دم بشري،
وآخرُ يبرهنُ أنّ نصفَ الجسد
أكثر فعالية من جسد كامل.
ويأتي ثالثٌ يغطّي القناعَ بالقناع
ينسج شرنقة لماعة
ويصلُ البدايات بالنهايات
مُراوحاً في النقطة الواحدة.
إنّه يترنّح وحيداً
يستدعي الزواحفَ من جحورها
ليقودَ موكب الكائنات التي لم تر الشمس
ويوزّعَ البراءات على المشعوذين والمحدودين.
هكذا يحقّقُ تَجليّاته:
يبني أصناماً ويهدمها
ويركض في حقول الماضي
كأنما يكتشفُ قارةً جديدة.

(كانون الأول ١٩٧٦)

الحجر الرمادي

I

أرمي الريشة ـ السّعْفَةَ في بحيرة الموت الزرقاء،
الحِبْرُ ينشر آماده فوق الورق الرمادي
يُكوِّنُ ليلاً سماوياً على مساحات الانطفاء
والكونُ يصمتُ على أعتاب الذاكرة المتعبة.

II

سألتُكَ أَيّنا يبكي؟
قلتَ أنا
فالوهج أَشعلَ أهدابي بجمرٍ أحمرَ
والسّنَا كحّل عيوني بالصنوبر المتعالي

تسلّقتَ جداراً لم يبقَ لنا

قلتَ كلمات حملها الهواء وأسقطها في أعشاش العصافير،

وكلّ ربيع تَلْهَجُ بصوتك أفراخُ الطيور

والثمرُ الحامضُ وعطرُ الأرض والخصبُ القديم.

قلتَ إنه وطنٌ لكَ

وما تبقّى قابلٌ للمراهنة،

لكنّهُ الوطنُ سقطَ عن الحائط

حجراً مخططاً

قلباً يهزّهُ الحنين.

III

ـ ماذا تريدُ من ليل لا تطلعُ بعدَهُ شمسٌ

وقمرُهُ لم يَأتلق؟

ـ إنه العمر / الدقائقُ،

والكائناتُ التي ما عرفتْ موطئَ قدم لها

لم تقرّر أيَّ كون تنظّم

وأيّ مسلسل للتناسل تدّعيه.

إنه الوقت السّديمُ
يومَ يضوعُ العطرُ في الحواضر التي نرحلُ اليها
ويهاجرُ الطالبون حباً وألقاً وغناءً.
- أيَّ حلم ينسُجُ هذا القائل بالتسليم
وحجرُ الباب ما زال ينطحُ الذاكرة؟
- إنه الحبّ القديمُ تعالى
وأنا أبكي وطناً ضيّعتُهُ في هنيهات السعادة
ودماً علا علمي
وندىً يلمعُ فوق صواري الرحيل القديم.

IV

دمعٌ ووسادةٌ عطشى وشبّاك وسيع،
يطلٌّ غيمٌ أحمرُ أسودُ
والمطرُ يسقي أرضاً لا تحتاجُ
والانسانُ غيمٌ لا يهطُلُ

والحبّ ندىً تبخّر في شمس النهار.

V

يأتيكَ من معبَر المساكن

من مسافات الحب

ويحبو حول ساقيكَ العاريتين عشقاً وطهراً...

ويوافيك هذا الكبيرُ الجميل

على رأسه خُوذةٌ وفي قلبه حمامة

يغنّي سلامَ الرجوع

ويحلم بالحجر رماداً يكحّل العيون.

(٣/ ١٠/١٩٧٦)

فصلُ الدموع المتوازية

اللیلُ أَوتارٌ سوداء

أُغنيكَ

هذه الدنيا تتّسعُ في عينيكَ

والضوءُ يلمع في خدّكَ سلاماً جميلاً

خلفَ أسوار الليل

تتصاعد الرؤوس البيضاء

تتألّق على السطوح

وأنا أخبئ وجهي.

(أيتها البراءة

لمّاعةً تبدين من خلل الخطايا ـ

أستارِ الزمانِ المشحونِ بالسُّخط).

*

تَفرُّدُ ما أنتَ فيه يأتي عظيماً

حين تعترضُ على نومك النجومُ

وتلتفتُ اليكَ أحصنة الأودية.

تحلمُ بالسِّحر

بالأنامل الذاهبة مع الريح

بالشّعر النابت زهراً

والعيون الباكية ندىً.

تغنّي / تبكي

عزفاً دائماً

ودموعاً متوازية

على المسطّحات الحمراء.

(٥/ ٢/ ١٩٧٧)

عليٌّ والسد

(إلهي كيف سريعاً تُنسى الفجيعة

والطفل تتألق عيناه بعد البكاء)

عليٌّ مدَّ غصناً ونما الغصن أوراقاً في الطريق

في حمّيات النظر الأعشى،

قال إني راحلٌ إلى جزر خضراءَ إليها تَعبّد الأجداد

راحلٌ تابعٌ عينيَّ،

عليٌّ مدَّ إبرةً وقال أصيبُ مركز الكون

أتحكّمُ بالدورة الكبرى وسائر الدورات.

عليٌّ قال قال

وسالَ دمُهُ نهراً

وبقيَ السدُّ بقي السدُّ.

عليٌّ قذف عينيه فوقَ الحواجز
تبحثُ عن هدفٍ أخطأته.

هدفُ عليّ يا وعداً شهدَ انتحاراتٍ
ومَصارعَ وعشقاً وموتاً مُعاداً،
يا محطاتٍ للانتظار طويلاً
يا عبوراً يا هجرةً
هدفُ علي.

ويعلو عليٌّ ويهبط والكونُ يعلو يهبط.
هدف عليّ يبحث عن كونٍ
وكَوْنٌ يبحث عن هدف عليّ.
ويبقى حلم للتحقيق ومآلٌ للصيرورة،
وعليٌّ يعلو يعلو
ويهبط في القيعان في القيعان.

(١٩٧٧/٤/٢)

الكائنات الترابية

خمسةً كنا على الأرض الصغيرة

نبني عالم السعادة من حجارة الشقاء

نعبُرُ الدقائق

نداعبُ شعر العمر الذهبي.

ولأننا ماضون بلا عودة

نلتفتُ إلى الوراء

نختزن في الذاكرة

حكايات الأيام القديمة.

*

كنا خمسةً نحب التراب

ونهفو لورق النبات مُشرقاً

نتواصل مع السماء

لعلَّ في لحظة طوباويّة
يتجذَّرُ السلام في الأرض
ويعمرُ شجرَ أرز توراتي.

*

خمسةً كنّا ومعنا اثنا عشر
على الأرض الصغيرة،
اثنا عشر قدماء
لكنهم صامتون،
وفي عيد الدمع كلَّ عام
يسقون الأرض
تُنجبُ زهراً أحمرَ
يتوهجُ تحت الشمس القاسية.

*

خمسةً كنّا ومعنا الإثنا عشر
أتى الطوفان / اللعنة
صعدنا إلى صخرة الجبل
الوثنِ العاصم من الماء،
. . . وبعد العاصفة كان اثنا عشر مُسجّىً

في خلايا التراب،
وجوهاً نورانيّة
وصمتاً جليلاً.

*

خمسةً كنا وقالت الأرض:
الكائناتُ الترابية تسترجعُ نورَها
بالصمت والنشيج. . .
وعاد الإثنا عشر
قديسين طاهرين
عمّدونا بالدمع
لنخلص من دنَس الأوثان.

*

خمسةً كنا وكان الاثنا عشر
وطناً نختزنه في الذاكرة
لهم خصبُ التراب ونقاءُ الدمع
وله البقاء.

(١٩٧٧/٥/١٧)

الإقامة في الأرض

تلكَ المناراتُ المطلّةُ من جبالِ

هل تضيءُ انطفاءنا

في زمان تُستعاد فيه الأيام فوق قبر ماضينا؟

يبدأ العزفُ على أوتار القلوب المتعبة

يأتي

يُعيقُ جذورَنا

تتزاحم في ألويته بُنودُ الدخلاء

وتَرسمُ الغربةُ خطوطها في الروح

يهربُ من مرآته

ويبكي نفسَهُ مرَّتين.

*

وحين تُنسَجُ خيوطُ الناس والأشجار

تبدأ الإقامة،

هذه الحكايةُ المستعادةُ،

عندما تَزرعُ شجرةً ولا تأكلُ

تتشهّى الجذورُ دماً تشربُ وترفضُ الماءَ

يأتي الريّ المستحيلُ وتأتي الإقامة.

منارةٌ في صدر الرجل تشتهي رصاصاتٍ

آتيةً من المواقع المظلمة.

تُقرع أجراس الحواضر البعيدة

تتقاطع أنهارُ الضوء

وتبقى في الظلّ منارتكَ الشاحبةُ الحمقاء.

تلعبُ لعبةَ الأيام

حواضرُكَ تتهدم

والفَرَسُ التي زلّت قدمها على صخرة الزمن

ما زالت تسّاقطُ إلى الحضيض

ومعها كبرياءُ شعبكَ المهان.

*

تتعالى البيارق ودمهم المجاني ينساب في مجاري المدينة القاتلة.

حَبْلُ السُّرَّة انقطع مع الدفء القديم

وها عالم بارد يمتصُّ لهاثَهمُ المباركَ

ويعمرُ ممالك الثلج اللماع...

وما تبقّى لكَ أيها الحنينُ الطالعُ في أمسيات التعب

عينان أغمضهما النعاس

وأهداب جمعت أحزان الكون.

كيف أُعيدُ التكوينَ؟

نسماتُ شعركِ في فضاء الغابات

وجسدكِ محطةٌ للضوء،

لا أُجيدُ التشكيل

وتظلّينَ في البال ذكرى تتناقصُ،

إنها هجمة الخواء ونحن ننقرض.

أيتها الوردة الأبديّة

يا وردةَ الضوء ولهاثَ العوالم المترديّة،

جئتك عارياً ألبس دمي ونسغ الشجر

ومسحةَ الطين على الجبين.

أجول في بلادي جنتي المستعادةِ والربُّ يحرسُ خطواتي.

أقفز في محطات تاريخي والشوكُ يُدمي.

أكفِّرُ عن ذنوب قاتليَّ

وأرى جثث أبنائي في المعسكرات

تُبنى فوق ترابهم قلاعُ النصر وأنصابُ الهزائم.

أيها الوطن الضيق

أُفتش عن مرآة.

عالَمٌ فيها يقابلني،

وأُدهشُ كيف لم أتفجّرْ في زمان سابق.

*

كنتَ متماسكاً كقبضة ملاكم غبي،

صرعتَ نفسك

رفعتَ يمينَ الآخر بالنصر وضحكتَ مستبشراً بالموت.

جاءكَ البردُ زغَباً لئيماً ناعماً

وكان فراشكَ فخاً شكلته تكنولوجيا العصر.
رقصتَ فوق قبرك وأنت ميتٌ في أي حال.
يتساقطُ قناعُ الأحياء عن وجهك يوماً
وتقفُ في الزحام كجثة
تسقطُ جثةً وسط الزحام
ساعداكَ حطب الجنوب الحريق،
صدرك ثلج الجنوب الجارح،
وترابُ الجنوب يغور تحت ألف فراش ووسادة
وحدهما عيناكَ يترقرق فيهما ماء قديم
قبل أن تأسركَ الكلماتُ
ترميكَ حيث لا أمَّ ولا أبَ
وتبكي ندماً عن ألف عام.

(تشرين الأول ١٩٧٧)

بيان الخوف

تحية أولى

صباح الخير يا قريتي.

أيتها الواقفةُ على حافّةِ الوهدة. المهددةُ بالموت حباً والموت بغضاً.

أيتها المنذورة لندمٍ لا ينتهي.

الصباح لك.

أيتها المتلفِّعةُ بغَبَشِ آخر الليل، ينسلُّ الضوءُ حَيِيّاً فوق تلالك الناهدة، ويهمي على المنعرجات المثلومة بتعب الأولين.

تشرق الشمس لتنير حضرتكِ الأبدية، ولا تخترقُ أجسادَنا المصفَّحَةَ بالكلمات والصِيَغ المعدنية.

أيّ أفق ملعون يجعل منكِ مشروعَ ذكرى؟

أيّ تعب يجعلنا حاضرين فيك غائبين عنك، نعجز عن الاحاطة بهوائك، وتنكمش جلودُنا هلعاً من شمسك النافذة؟

يا قويةً كحبيبة ترتحل!
طاغيةً كحاكم في لحظاته الأخيرة،
وجميلة كحلم في بداءةِ الصحو.
هل نودّعكِ
هل تودّعيننا،
هكذا ببرودة البائعين المتجولين؟
(لقد هجَّنتنا المدنُ والمواعيد المستحيلة)
هل نزرع شجرة، نُنجبُ أطفالاً ونعمّر بيوتاً،
تبقين وفيك نبقى؟

أَجيبي...
إن قلوبنا ضيقة لا تسع حبةَ تُرابٍ.
ذاكرتنا المتعبة لا تستوعبُ زهرةً من وهادِك،
لا صوتَ عصفور ولا أغنيةً في سهرة قديمة.

قد ضجرت نفوسُنا، هشّمتها السواحلُ وما يلفظ البحر من صدأ الكلمات.

نحن قرّاء الحروف السود

لا نقوى على رؤية حروفك الخضراء.

صباح الخير يا قريتي...

لكِ الصباح، يا حقيقةً بلا وعد.

خوفي عليك بين التحية والتحيّة،

وكلُّ لُقيا فهي مفاجأة العائد بعد يأس.

تحية ثانية

صباح الخير يا وطني.

صباح السلامة لأخمصِ بحركَ وَهَامِ جبلك. أيها الحبيب المهيأ للرحيل، يا جميلاً قابلاً للبشاعات، تَفْتحُ الشمس عليك أهدابها، وتذرف مطراً ساخناً.

عطشان، أمامكَ البحر.

جوعان وحولكَ خيراتُ السهول.

تتدلى أثداؤكَ المباركاتُ لترضعَ حيتانٌ، وتقطعُ لحمَكَ الغزالات الضائعة.

صباح الخير يا وطني.

تفتَّحتْ عيناك على رماد، ولن تستطيع هرباً إلى الأحلام أيها المفجوع بنا نحن المفجوعين بك طاولةٌ وكراسٍ وصاحبان.

صباح الخير يا وطني.

تلال الوداع تحني هامها للريح. ضبابٌ يغيِّبُها، وأنت تنحني تلَّةً حزينة في وادي الرماد.

الجنةُ الخضراء تلمُّ حدودها وتُخبَسُ في دوائر الحنان الأخيرة.

أنحني في بيتيَ العُلويِّ. أُطلُّ على موج الحريق.

ـ بيتكَ يحترق.

ـ إنه الوطن.

تُفكرُ في ما يرثُ أبناؤكَ. و«أمينة» في الشرفة الجانبية تبكي.

ـ ما تبقّى يؤمِّنُ لهم الحزنَ الوثير.

صباح الخير يا وطني.

كفكِفْ دمعك أيها الحبيب

المرأة وحيدةٌ في الشارع الوسيع تستذكر قصائدَ انكليزية وتبحث عن حبيبٍ شاردٍ في الليل.

أيتها العاقُر على الرصيف الليلي، عيناكِ غائمتان والأَسوَدُ يطلُّ من كل باب.

نبضُ أوجاعكِ في واجهات المخازن، وَلْتفتّشي عن لونكِ الورديِّ في دفاتر الذكريات، في مرايا الغبار.

صباح الخير يا وطني

البيزنطيون يتجادلون في المقهى

البيزنطيون تزوّجوا كتبهم وناموا.

صباح الخير يا وطني.

ـ «هَبَّةٌ باردة، هبَّة ساخنة» تقول أمي.

ـ إنها ساخنة هذه المرة حتى الغليان، وهو جلدنا يُسلخُ طبقةً طبقة.

صباح الخير يا وطني.

أيّ قدر قادَكَ

أيّ قدر تقود

توحّد فيك القاتلُ والقتيل، المشتهي والعاجز، وأنت تتهافت لذةً وفناء.

موتك يكتب لغة جديدة.

أنتَ فاديها الأوحد.

يا وطني.

المواعيد

لا تبرَحْ

أمامَكَ الليلُ المديدُ شاحباً مجهولاً كعين الرقيب.

وتمسَّكْ

عيناك تأنسان ببيارق الماضي

والدروبُ مزقتها المهاوي.

[نتهادى خيطاً وحيداً نسيجَ السقوط

ينسمُ الشَّعر في الرياح الباردات

معاً نسقط

في آذاننا كابوس الصرخة.

يا وعدَهُ الجميلَ

فماً مقفلاً وحنجرة جمادا].

يتقدم السيلُ. . . يا دافئاً تتقدَّمْ
يتساوى فيك الصراخ والهمسُ،
هي النوافذ تُفتح
(الحب أمَّارٌ بالسوء الأعظم)
يحيط بك حذرُ العيون
وأنت غرقُها الجميل، نهاية الحكاية اللعينة
وتميمةُ الأمان.

[أيها الموت الهادئ انتظِرْنا
نحن موعودوك السريون
محطات قديمة في ناريِّ الحقبات،
مسكونون بالآفاق
تلفظنا أرضٌ وأرضٌ تستكين].

أيها السيل الدافئ احتضنَّا
نُعلنُ الوداعَ نُعلنُ اللقاء.

خربشات الجدار

أَقرعُ باب وحدتكَ،
أَقرعُ لا تجيب.
الصمتُ يا أنتَ
يا غصةً وندماً ويا خطيئة

توابٌ مبكِّر؟
مات نجيُّك قبل أن تتعارفا،
تتعانقا من وَلَهٍ على مشارف البحر والمدى صحراء.

توابُ ومبكِّر؟
حملتَ اللافتة بعدما أخرسك الصياح.
حاولتَ وصلاً لقطعٍ، تسويةً لخنادقَ، وقتلوك عند الحدِّ

أنتَ الحدُّ وجسدُكَ همزةُ الوصل.

غريبٌ قديمٌ

وحيدٌ، وقلبُك محطة التناقض...

مُبْعَدٌ، وخيالُك يقارب أطراف الكون.

توابٌ تقول وما أذنبت؟

كلُّ خطيئة فهي لكَ. مسيحٌ والصلبُ خالد،

القياماتُ تهمٌّ.

ويجمعُكَ مطرُ السماء.

المكانُ يضُجُّ. تضُجُّ.

أنت المكانُ

صبرُكَ دهريٌّ ولك البقاء.

هل يحزن المكانُ، يقطِّبُ حاجبيه، يتذكَّرُ، تدمُعُ عيناه الترابيتان ويُسدِلُ شعرَهُ الشجريَّ على الكتفِ التلَّة؟

قالوا شاهدنا مكاناً يحزن، أرضاً تركت نظامها، عصافيرَ

طارت لم تحط، كلاباً عوت تنذر بزلزال، وكان النهر فاتراً والعشب شاحب الخضرة.

قالوا: مكانٌ يحزنُ أَذْنَبَ ساكنوهُ.

أَفتحُ بابَ وحدتَكَ

أرى الجموعَ خربشاتٍ على جدار قديم.

كان الفيضان وكان البيت واطئاً، علوْتَ كمركب.

الوسادةُ تسبحُ وأحلامُك بُقَعُ الزيت فوق الماء.

وصلٌ وفصلٌ، وأنت غريقٌ تكادُ

البيتُ الواطئُ بركةٌ،

غرقَتْ خربشاتُ الجدار.

ورأسٌ مُليَءٌ ماءً، ماءً كثيفاً كقاع المحيط.

أَقرعُ باب وحدتك.

لا تفتحُ.

توَابٌ أنتَ، وسيولُ التوبةِ فتحُكَ الآتي.

فم الذهب

أذهبُ بعيداً، لم يقبلوني، لن يقبلوا.

أذهبُ بعيداً، قريباً، أكثّر قرباً،
نقطةَ الدائرة.

الدائرةُ الشعارُ وأنا قاعدةُ الوثن
أعيادُهم تضيء ألواناً
أقول نُبليَ العتيقَ
أقولُ أوهامي.

تَحْفَظُ العهدَ ـ عشرونَ مضيْنَ
تحملُ الأمانة.

الأمناءُ من سحيقٍ رحلوا،

يا وحدتَكَ بلا أسوار،
وأبناؤك ثمراً ما تذوقوا.
يُعطونَ ـ تقليدٌ قديم.

إقطَعْ.
أَنْتَ تدخلُ طقساً آخر
ترسمُ زماناً
ويبدأُ نورٌ أَوَّلي.

يمشون على صراطكَ
ـ لا تدعوه يهتزُّ. تسقطوا.

آه من رغبة في الاهتزاز
يرقصُ الالم الدهريُّ.

تعالَوْا أبناءَ همزة الوصل.

هوَ أنتمْ في ما تتمنَّوْنَ،

والليلُ هو صبحُهُ المجتلى

وفمُ الذهب على باب المدينة.

تحصدونَ مقدَّس الزرعِ

ويعطيكم في كل زمن شهادة.

أولٌ، ثانٍ، ثالثٌ.

هل رابعٌ؟

هل اعتادوا؟

آخرُ يُعيدُ اللعبةَ إلى البدايات.

عصرٌ تعجِّلونَ فيه يأتي

ويأتي من يحرِّكُ المِرجَلَ.

لا تملكونها النارَ لا تملكون.

عينٌ بريئة أَخضعَتْ مملكةً

والشُّطَّارُ يُحنونَ رؤوسهم أمام الطفولة.

الرجل لا يسمع الحوار.

يقول لغته، يعليها

... ويبدأ الزمان.

ماء وأغصان وعابرون

تحفظينَها بابلَ في القلب، تردِّدين، «مارينا»، والنهر يصرخُ حتى الزَّبد. ثمَّةَ صفصافٌ ينحني، فتيانٌ عالياً ينظرونَ شبّاكَكِ المشرَّعَ على شمسٍ تغيب.

*

تسكنُ بابلُ في القلب، يتلاقى أحمرُ وأسوَدُ فوق عتباتِها والمناديل. من يهمزُ الحماسةَ، تضاريسَ الظلمةِ يسوّيها، يعلنُ السَّلامةَ، يعمِّر شفاهاً للقبلات ويبني تلالَ عسلٍ رخيَّة؟

*

أساويكِ وأعلنُ بَذْئي. أخرجُ من حدِّ السَّيفينِ، أعبُرُ سيفَ الحدَّينِ وأمضي، مارينا.

مَنْ جائعٌ وأنتِ؟ مَنْ أنتِ وبالِكِ يوزّعُ أشياءَهُ على العابرين؟ نرحلُ معاً، نعودُ، ندورُ حول العطيّات نذور التلال.

*

روائحُ المسارِ أُسائِلها حين القَدَمُ تَزَلُّ وتحضُنُ الوَهْدةُ أجسادَ الضياع.

مَن ضائعٌ وأنتِ؟ مَنْ أنتِ تضيعين؟ ألقاكِ في كلِّ صفّ بين العذاباتِ، حضناً لأَطفالِ وشمساً لليلِ يبتدي.

*

في القلبِ بابلُ. على شفْرةِ الشارع تُقَطَّعُ أسماءٌ، تتناثُر حروفاً دماً:

هذا أنا مفتاحُ أسراركم، نُذِرْتُ للآتي. كان الماءُ يغمر المدينةَ والليلُ حامياً لنورٍ يخاف. قلت ابدأوا دورة الصَّخْب والعنفوانِ، ولنُعِدْ مُبتدانا: شمسٌ تدفئُ الأطفالَ ويربو الزَّرعُ على الرابيات.

*

أبدأُ من الألِف، أعودُ، بابلُ كلُّ الحروفِ واللُّقى الاحتمالاتُ، ثمَّةَ قرميدٌ ونهرٌ وشمسٌ تغادرُ، ثمَّةَ عينانِ وعينانِ وقلبٌ يُقرعُ، كَوْنٌ يتراقصُ في الأهداب.

*

... وتلوحُ يا شَعْرُ بين الريح والأُمنياتِ، سؤالاً تتلوّى، ومارينا تُشرِّعُ على شمسٍ تغيب، يبدأُ عزْفٌ ـ نشيدٌ: ماءٌ وأغصانٌ

وعابرون. تتلاقى ألوانُ بابلَ، في القلبِ تسكنُ هانئةً ويهدأُ المتعَبون.

مدينةٌ تنام شهراً،

وتصحو حياةُ الحياة.

أوهام خجولة

الليلةَ يندمُ. يُمسكُ بخيط الخيبة حتى طرف الجنون. يُصابُ بالعيِّ عقلُهُ الليلةَ. ما يلبثُ أن يُفصحَ إلى الدَّاخل ثم يطفحُ من الفم.

تلهجُ الألسنة التي أثقلتْها الحكمةُ البائدة، وتأتي ساعةُ التخلّي: أستاذُ المنطقِ يحملُ عصفوره. «يشخُطُ» العصفورَ ثم تتلاطمُ الأصواتُ في فمه الذهبي، تلوّنُ بقعُ الدم رصيفَ «الحمرا».

الصحافيُّ يُطلِّقُ ثلاثاً لغتَهُ القديمة، يتتالى الكلامُ محدودباً ناعماً، رفَّ حَجَلٍ فريد الرماد. الصحافي يقدم خليطَ الكلامِ الجديد: برنامج مرحلي، بيان استراتيجي، اعلانات مبوبة، أوهام شعرية، لعبة برلمانية، خطوط للتماس، نقاطٌ للارجوع، فعل الأمر «استقل» دون تحديد الفاعل، أهو العالم أو الرئيس أو الله أو طفلٌ يهم بالولادة؟

الليلة يندم. ينشر هباء الكلام. لو شعرةٌ بين الغَيِّ والحق. لو شعرةٌ تُوصلُ لقال عالياً ما يهمسه وأعلن الوطن. ليس عقلاً شمعيّاً ما يفكّرُ، ليس جسداً معدنياً جَسَدُهُ، وكم هو عاطشٌ إلى ماءِ الوطن القدسي:

أينما وقع فعلى خطأ، وكيفما قام فإنّ له قيامةَ المأخوذ بحدِّ المدية. طبولُ الرعبِ تقرع وهو أضاع الطريق.

الأشياء ما عادت الأشياء. المخلوقاتُ كلُّها تمارس لعبتين. أُولى للجهر وثانيةٌ في المخادع.

من أنتَ؟

تكاد تنسى لكثرة ما راوحتَ بين المواقف الرسمية والمواقف الخاصة، وإذا قرَّرتَ أخيراً فرقمٌ أحمرُ تعلِّقُهُ على ظهرك وتؤمِّنُ خط المواصلات المستحيل بين بيروت وبيروت.

«أمينة» تُخزِّن أوهاماً ساخنةً لأيام الشتاء، تجمعُ هنيهات اليقين لساعات التخلي.

«منى» تهرق دمعاً أمام المرآة. ترى خلل اللمعان بريقَ مرجٍ تنسحبُ عليه الألوان.

بين الحائط والمرآة تجلس «منى»، ترسمُ بحراً، جبلاً على منديل الورق، يأتيها طيفُ مَنِ اختارَ منفاه. تدخلُ منى في منى، تتحصَّنُ. تُقفلُ باب الذاكرة، تسدِلُ الستائرَ على الأيام القديمة.

وتأتي ليلةٌ. يا ذاتَ ليلة باردة. تموتُ الأميرةُ في القلعة، ويحمل ساعي البريد كلمةَ رثاءٍ عقلانيةً بلغةٍ أجنبية.

القمح السكري

أَحضِروا القمحَ المحلّى لزيارة الموتى هذا الصباح.

قبلَ بزوغ النور نزيحُ من طريقنا الضبابَ والندى المتطاير.

باكرةٌ زيارةُ الموتى ومقدَّسٌ ترابُك يا أرض، أيتها الأمُّ، يا ذاتَ الأبناء العاقين.

القمح السكَّريُّ أَحضروهُ.

القبورُ البيض في نهود التلال تنتظرُ. (نحن على عجل)

قبلَ أن ينشقَّ النهارُ عن دويِّ المدافع وباعةِ الكلام والجرائم الملفَّعةِ بالذّرائع الوردية.

ذواتُ الوجوهِ النورانيّةِ يتلفَّعْنَ بالأبيض، يتوحَّدْنَ وغبش النور الأول.

«أمينةُ» تحمل جرَّةَ القمح، تنثر الحباتِ فوق الشواهد:

يا زائري لا تنسني

من دعوةٍ لي صالحة

إرفعْ يديك إلى السما

واقرأ لروحي الفاتحة

ترفعُ «أمينة» وجهاً إلى السماء، واليد تنثر على الأرض الحبات (قال الشيخ إنَّ فعلها من تُرهاتِ الأوّلين)، رددت النسوة حكايات الأسلاف عن رغباتِ الموتى: القمح المحليّ بالسكر، لتخصبَهُ التربةُ وينبتَ إلى الأعماق. القمح المحليّ لتنقُدَهُ العصافير وتعلو إلى السماء.

ـ هل شهدتَ تبدُّلَ الفصول وأحسستَ نبض الأرض في ارتحال النبات وإقبال البذور؟

ـ إنني هنا بالمرصاد.

ـ أنمتَ ذات صيف في عرزال الوزال، ونشرتَ ثياب أطفالك على العوسجات، ونصبت «المطافح» لعصافير الخريف؟

ـ أنت غبي وثرثار. ماذا تخبئ في بردعة حمارك؟

ـ ما خفَّ حملُه وغلا ثمنه.

... وفكرت أمينةُ كيف لها أن تحمل التراب وشواهد القبور.

ـ أسرعي أيتها الفلاحة الحمقاء، لا مكانَ هنا للمدنيين.

سارت قوافل المهجَّرين. سراعاً كانوا يعبرُون الكوابيس الصغيرة نحو كابوس الشمال الأكبر. لم يفتشهم أحد. كان الطفل الصغير يحمل في جيبه حفنة من التراب. قال سيصنع منها قرصاً يضعه تحت جبهته وقت الصلاة. كان يحس أنه سيصلي في أرض بعيدة خلف البحور السبعة.

وصلوا إلى مدينة بلا وجه. بالإيماء تحادثوا مع سكان بلا لغة. . . تذكروا أمينة التي تخلَّفَتْ في عالم لا يتَّسعُ للمدنيين. قالوا إنها بَنَتْ غرفة من شواهد القبور واعتصمت بالموتى. تطلَّعَتْ إلى أرض تحترق وأحسَّتْ بنبات القمح السكري يخصب إلى تحت، إلى مدينة الموتى الترابية.

كبرَ الطفل وكتب عن أمينة أُولى إنجازاتِهِ، كتبَ مادةً إضافية في شرعةِ حقوق الإنسان:

«للموتى الحقُّ في سكنى قبورهم دون أية موانع، وتعتبر باطلة عقودُ البيع الخاصةُ بالمقابر. ويحق لأقارب الموتى أن يسكنوا فوق القبور ويُدْفَنوا في غياهبها دون أية موانع، ومهما تبدلت السلطات الزمنية».

هيلانة

موكبُ الصوت والإِيماء يُرَتِّلُ لراحة الموتى ليلةَ الميلاد. قططُ الأرضِ المهجورةِ ترفع رؤوسها إلى السماء. تُصَعِّدُ أصواتاً في الليل وتبحث عن قمر يضيء بين منفرجات الغيوم السود.

العجائز في بيوتهن يمسحنَ دموعَهن بالقطن، يتسلّينَ بغزل الأوشحة. أشباحُ الحاناتِ تُلوِّحُ بمناديل الدخان. والرجالُ الذين أضاعوا ظلالهم تحت المصابيح يعودون في لحظة الدمع. يعانقون الحقيقة الحزينة، ثم يغيبون في مدى الشارع البحري.

العذراء هيلانة ماتت ليلة الميلاد.

كانت الأجراس ثقيلة، وحبل الكنيسة لا يطاوع الأيدي المصبّغةَ بدم الصَدِّيقين... العذراء هيلانة تسمع من مضجعها صوتَ الموكب الفريد يرتل لراحة الموتى.

التجربة الأخيرة كانت حقيقية. أوقدَتْ شمعتين على جانبي السرير ونامت. تغطت بالأبيض وماتت هيلانة.

هي المرةُ الأولى ترتاح العذراء التي جرَّبَتْ وما جرَّبَتْ عبرَ سنوات البحر والشمس والنار.

فارسُ الأحلام النمسويُّ مات من فجر عمرها، السيفُ غطته الثلوج، والياقةُ المنشَّاةُ اتشحتْ بصفرة الخريف في غابات أوروبا.

الزمنُ البطيءُ أسرعَ من خطوهِ وبدأتِ الأشياءُ تفقدُ حميميَّتَهَا... تهرُبُ هيلانة إلى الثياب الجميلة إلى البحر، حيث بيروتُ تمتدُّ شوارعها، تؤالفُ على أرصفتها كل الألوان، ترقد تحت سطح القرميد أممٌ، وعلى أدراج البناء الواحد تتناغمُ حروفُ اللغات.

هيلانة تعانق مدينة الزمان البطيء. تقرأ بجميع اللغات ملفَّاتِ الانتظار. الزبَدُ يحكي على الشاطئ أخبار رحلته الطويلة، يستريح على الرمل ويبلل قدمي هيلانة.

[البرنامج الخارجي للعذراء]

- ابتسامةٌ للضوء المقدس.

- تحيةُ الصباح للشاعر الآتي من الجنوب.

- قطَعُ اللحمِ للقطط المتشردة.

- سَحْبُ السلة والحصولُ على الخبز وصحيفة الصباح.

ـ القهوةُ بالحليب.

ـ فاصلٌ من صلاة الوعي.

ـ الذهابُ إلى الدكان.

ـ استطلاعُ الأخبار الخاصة من عجائز الحي.

ـ الغداء.

ـ القيلولة.

ـ زيارة الشاطئ.

ـ ممارسة التبصير بورق اللعب.

ـ الموسيقى حتى منتصف الليل.

ـ طوارئ الأحد: زيارة الكنيسة.

[البرنامج الداخلي]

ـ حوارٌ مع الأشياء والزمان.

ـ رحلةٌ مستعادة إلى الطفولة.

ـ تفصيلُ المحدودات ونشرُها في المطلق.

ـ زمنٌ احتياطي: للذاكرة وحكايات القطط.

وصوت الأمواج وتشكّلاتِ الأُفق الغارب.

الكلاب تعوي قبيل الزلزال، لكن قططَ بيروتَ المتشردة تموءُ قبل الحرب. وحين كانت هيلانة ذات صباح ترمي بقطع اللحم فهمت النذيرَ واستعدَّتْ للآتي: تحصَّنَتْ هيلانةُ في بيتها وجمعتْ مؤونةً لحرب قاسية.

البحر القريب ابتعد، وبيت هيلانة صار في مدينة داخلية. تغيرت جغرافية الساحل، وهيلانةُ الداخلِ تعرفُ أنَّ الإنسان يُفَصِّلُ عالمه كما يريد: يدفأُ في الشتاء ويرتجف في الصيف، يسبح في الصحراء ويبحث في مدن الشواطئ الخصيبة عن الواحات.

تعتذر هيلانةُ لنفسها: الانسانُ يفصِّلُ عالمه لا كما يريد بل كما يُسمحُ له أن يريد. وهيلانةُ رسمَتْ حصناً وشُبّاكاً للمراقبة وجلسةً للانتظار:

رأتْ مدنياً يموتُ على الرصيف، صحفاً تصرخ، وجوهاً تمتلئ حماسةً ثم تصفُّر من الخيبة، أسلاكاً شائكة توضع بين الرأس والساعد، بين اللسان والكلام، حدوداً تُرسمُ على جسدِ جريحٍ وأياماً للتآكل السريع.

رأتْ عملةً جديدة تقلِّبُها الأيدي، وجهاً للهزيمة وآخرَ للنصر، ورأت هيلانةُ زمناً يتسارعُ، أيقنتْ أن بيروت تغيِّرُ جلدها وأنها تدخلُ في جحور الطلاسم.

كان الشاعرُ يزدادُ فشلاً ويحترف الكذب، والعجائزُ يرحلنَ إلى مدن السلام والسرعة... البحرُ يلملمُ أمواجَهُ والزبدَ، تاركاً خلفه صخوراً جارحة... وهيلانةُ تنتظر.

وحين اشتدّتِ الرياحُ الحارةُ تحوّلت المدينةُ إلى أطلالٍ بائسة وتافهة، هدأتِ المدينةُ ووقفتْ هيلانةُ على الشرفة لتسمع مجدداً نذيرَ القطط.

انتظرتِ العذراءُ. كحَّلَتْ عينيها بالضوء، مارستْ برنامجها الداخلي بإدمانٍ شديد.

هي ليلةُ الميلاد تُقْبِلُ، تتغطى العذراءُ بالأبيض وتموت. شمعتان تذوبان على جانبي السرير، وحين الانطفاء تعود هيلانة إلى طروادة.

وردة الانتظار

فجأةً يستفيقُ فيك الوطن. تبحثُ عن وجهِهِ وجهِكَ في بابليَّةِ الجموع، عن تمثال تنصبه لأطفالك. انهم ينشأون في حقل التجارب والقلقُ يحتلُّ المدينة الضيقة.

تتذكرُ الوطنَ، تقومُ باختزال المسائل إلى بساطتها الأولى: تقولُ كم يحتاج الفرد عندنا إلى جَرْعاتٍ من التحليل والربط بين الوقائع ليستطيع أن يتنفس.

الجدلُ يحتل الأمكنة، وتعلو مبرراتٌ يوميةٌ هامةٌ لموتٍ يوميّ غيرِ مهم.

ها واحدٌ من صباحاتك يطلعُ ولم يصحْ ديكُ الحديقة المقابلة. دخل الديكُ في حضارة الخوف. السكوتُ وأَنْ لا تخطئَ في المواعيد... كلُّ شيءٍ منظمٌ في وطنك المعلق، حتى أدوار الفوضى والاعتراض.

لقد آتت أُكُلها المريرةَ حضارةُ الخوف. نقطةُ الماء الدهريةُ تُذيبُ صخرة... تراكُمُ الأخطاءِ يضيِّعُ وطناً، يهدمُ المسرحَ على المنتصر والمهزوم، الحرّ والتابع.

يا وردةَ الانتظار كم تحملين في أكمامك من سموم النهايات اللعينة.

قلتَ عند مغادرة الفراش: هذا اليومُ للقلقِ. كان الرمادُ يسيل على الدفاترِ والشوارعِ والأفكار، يتجمعُ في فناجين المقاهي.

أَوغلتَ يا شريدَ الثامنةِ صباحاً في غمام المدينة المبطّنِ بالغبار والزفير الخانق.

تدورُ وفي معصمك تدورُ العقارب.

تنسى الحدودَ ومكعَّبَاتِ الواجب.

على الرصيف المقابل كان عجوزٌ شاعرٌ يحمل التفاؤل في يديه اليسرى ويدعوكَ بابتسامة مطمئنة: الطمأنينةُ خشبةُ الخلاص للغريق. إلى طاولة الرصيف يشربُ الشاعر قهوتَهُ وتشربُ أنتَ رمادَ الظهيرة. تبحث عن مرآة للقلقِ فترى رضىً عميقاً. يقولُ الشاعر: التقيتُ مواعيدي القديمةَ بالسواء. صارَ الوطن سهلاً واسعاً حتى المطلق.

تعود يا «عوليس» من سفرك الرتيب. «بنلوب» تغزل وتفكُّ
في الليل حياكة النهار.

تعودُ يا «عوليسُ». القذائفُ تستكملُ تسوية مُطلقِهِم الموعودِ
وأنت ترسمُ التضاريس على الورق.

في بيتك الصغير تعتاد نعمة الرضى. تجمع أولادك في أيام
العطل، ينشدون «كلنا للوطن» ويحلمونَ أنْ يكبَر البيتُ الحنانُ،
تعلو تضاريسُ الوطن حدًّ السماء.

الدم الترابي

اخترقتُ حدود أوهامي، تعلّقت بعمود الميزان، الكِفَّةُ وأختها تشكوانِ خَواء المعادلة، ويا لشقاء الواقفين عند نقطة التوازن!

يا بلاد الجنون الجميل، بلادنا. أيتها الضائعة ولم تدخلْ ملكوتَ النسيان.

يجمعنا حبٌّ ما. ذوبان عشق، انسيابُ شوق لا ينتهي. يجمعنا الخَبَلُ الوردي.

بين الجموع أناديك، أجهرُ بلغتنا، يقولون يهذي، وأنا أتقنتُ لغتكِ، وصوَّرْتُكِ زهرةً يا زهرةَ الحجر.

أمينٌ لدمي، أزوركِ في البال كما زيارة الموتى صبيحة العيد. هل أنتِ ميتة؟ وهل هو العيد تعلو نوافيرُ مائه وأراها جُمِّعَتْ من دموعنا؟

أمينٌ لدمي أفتح قواميسنا القديمة. وحيداً أقف أمام الكلماتِ

الصُّوى، لئلا تضيعني اللغاتُ المتلاطمة: تعابيرُ تتوالدُ من قَدْح الرأس بالخوذة، من افتراءات لا تتوقف.

أمينٌ لدمٍ حاروا إلى أية فئة ينتمي، دمِ ترابي فخّاريّ اللون، دمِ الحقول والقرميد والحماسة الأولية.

شمّت «أم مصطفى» قميصيَ علَّ في البُرْدَةِ نسمةً من جنوبٍ ينأى. بكت: «ماذا حلّ بالجماعة؟» قلتُ صلّي لهم.

«أم مصطفى» أضاعتْ عزيزاً: عندما ذات يوم لملتْ أغراض البيت ورحلت شمالاً، حملت في يدها حفنة تراب، وعند الحاجز الأخير صادروا التراب: «ممنوع تهريب التراب الوطني».

من مكانها القريب البعيد كانت «أم مصطفى» ترى أحذية الجند تخبِصُ تراب الجنوب الموحل.

السيدة المشتاقة للتراب سألت: هل لا زال ينبتُ الزوفى فوق تلك الروابي؟ هل لا زال له عطرُ الجنان؟

ـ ابعِدوا الكأسَ عني.

ـ إنها تشفيكَ من النوبات.

ـ أبعدوا الكأس.

ـ إنها تزيل أُرجوانَ خدكَ الخطر ويقظَتَك المؤلمة.

ـ أبعدوا...

كان الرجل يصرُّ على مرضه... يرى من خلل الأشياء سُمّاً أزرق في الماء، في الطعام، وفي زعانف الهواء الرطب.

مضى زمن لم يَشُمَّ فيه رائحة العطر.

مضى زمنٌ. قالوا: إنك تبالغُ في حساسيةٍ واهماً. اصطحب الرجلُ زملاءه ليشاهدوا في شوارع المدينة عرباتِ العطور الاصطناعية، حولها يتحلّق الناسُ، يمدّون أيديهم كغرقى إلى حبل النجاة.

*

أصرَّ الرجل على أخطائه الصغيرة.

إليكُم الرجلَ الوحيدَ: ليس ملكاً، ولذا لم يشرب من نهر الجنون الذي ارتوت منه الرعية.

تميمة النار

صار واقعياً. إنه يموت

هذا الذي وُلِدَ جنوباً، وتثقَّف جبلاً، وانتشر بيروتاً واحتضنَ واقعَ الوقائعِ. عاقرَ الحماسةَ شمولاً ومكاناً محدوداً، وانكسرَ مهمازه وزاغَ نظرُ الحصانِ من تشابُهِ الطرق والمنعرجات.

قالوا: كان يمطُّ زمن المراهقة ولا يعطي لكل مقامٍ مقالَهُ، يحبّ بلا مردود، يحتضن الأقربين والأبعدين كمسيح جديد، وينكسر في زوايا الشوارع سلَّةَ مهملات.

لم يقلْ، وإنما نظرَ دهشةً واستشرف رماداً.

قالت: اين ضحكتكَ وغناؤك وفرحُك الليلي مزمارُ وحدتنا؟ سألَتْ كثيراً. صار واقعياً. إنه لا يجيب. مرة أعلن مبدأه: مغالبة التعب بالهجوم على العمل، وقهرُ اليأس بمزيد من المشاهدة والشهادة.

صار واقعياً.. . إنه يموت، وهي تعيش.

مدينة أحلامه يتناسل الفرحُ على أرصفتها، يلملم كائناتِهِ المهرّجةَ من زوايا القلوب القديمة، ويؤلِّف البدائلَ لمجتمع رحل إلى الأبد.

قالت الكائنات: ما لهذا الرجل قصبةً قديمةً في الرياح. قالت إنه ينطق بصوت الرياح، يُرخِّمُ الصوت وينغِّمُهُ في سَمع العالم. مَنْ غيرُهُ هو المجوّفُ يستطيع هذا الترخيم ويتنكَّبُ مهمة التوصيل؟

مجوَّفٌ وواقعي. . . لقد مات، لا يعرف منذ متى، لكنه تأكد أنه مات حين تعطّلت ذاكرتُه ووقف يشاهد آثارَ روحه، وبدأ يعتاد حياته الطينيةَ والدروبَ المعروفة والمملَّةَ في مسيرة كل يوم.

قالت: إنك عاقل أكثر مما ينبغي، خاضعٌ للضرورة ورجلُ بيت نموذجي وفق مقاييس المجلات النسائية.

إنها لا ترضى؟ لقد أنهى ترويضَ نفسِهِ ليصالح العالم ويُنهي لعبة المفاجآت المرعبة. وهي ذي تعيدُهُ إلى زمن المراهقة وحيوية التكسُّرِ فلا تستطيع.

*

كم هي طموحٌ هذه الغزالة الأَثرية، تتحرك في عُلَبِ المدينة الحجرية، في غابة الدخان، كما كانت في تلال الورد ومنعرجات

الخضرة الفاقعة. آثارُ شمس الطفولة في عينيها ووهجُ الجبل والوادي على خديها لم ينطفئا بعد.

يا لهذه الغزالة تتحدّاه حباً. وتقطعُ حبلَ مصالحاته وتجعل من ليله هستيريا للذكرى الفانية.

صار واقعياً. لقد مات

خُذوا هذا الجسدَ الطينيّ والعقلَ المرنَ كقطعة من عجين. إنه حاضرٌ للذرائع والتعقُّل والصبر على المكاره. حاضر ليستنطق كلَّ هزيمةٍ نصراً ويستنبع كلَّ صحراءٍ ماءً ويصوِّرَ كلَّ هبوطٍ صعوداً وكلَّ عبوسٍ بسمةً لا تنتهي.

بوركَ لكمْ بموته ذي الغلال. وأنتِ أيتها الموقظةُ رمادَ الروح. يا إلحاح النارِ المشتهاة. ويا لمعةَ البحر في أجنحة النوارس. لكِ هذا الإصرارُ على الرقص فوق الخرائب. هذه القدرةُ على تصوّر السهوب. هذا الاستبدالُ الدائم.

أي منهل سريّ يستقي منه خيالٌ ابتعدت مصادره؟ ألَمْ يتراكمِ الطينُ في روحِكَ، ولا زالَ يحاول عند العتبات والمنافذ؟

واقعيٌّ وغيرُ واقعيَّة.

مستسلمٌ للمناخات الفاترة يصالحُ في دخيلته المتناقضات. ومتمردةٌ تُصِرُّ على أنه كابوسٌ ويمرُّ، وعلى أنَّ ثمةَ جنةً وناراً، سواداً وبياضاً. وتختارُ دائماً أَنْسالَ شمسها الضاربة في الذكرى.

صار واقعياً. لقد مات.

في المدينة الحجرية، غزالةٌ تحمل النارَ المشتهاةَ، تميمةً على النحر، تحاول تكسير مصالحاته، ومن نوباته الليلية تفعل تميمةُ الأمانِ فعلَها...

ذات يوم لا يبقى واقعياً ويُبعثُ من جديد.

السيدة

أُعَنْوِنُكِ الخروبةَ، وقبرَ الوليّ، كتفَ الجبل الأملس، وفي المقترب تنحدرين وادياً أعمق من خيال الراعي.

أعنونك اللحظةَ الهاربة، الطفولةَ لم نشربْها جيداً.

أعنونك سلاماً يعبُر، تُطلقُ المدافع كتَلَ النارِ والصوت.

أعنونكِ العصافيرَ الهاربة قبل انقضاء الصيف.

*

يصرخُ ثانيةً ذلك الجالس عند الزيزفون. لا يستجيبُ أحد. بعضُهم قال: صوتٌ غريب وما هو بغريب، الزيزفونةُ يعرفُها والدفلى والوزّال، يعرفُ مسالكَ الوَهادِ ومنعرجاتِ الجبل.

غريبٌ هو الصوت. لقد تغيّر للتّوّ. كيف تأتي الرجولةُ فجأةً، بعد سنةِ حرب واحدة؟ جَوْزةُ الرقبةِ بَرَزَتْ وصار الوجهُ أكثرَ انشداداً.

ضحكةٌ تُجلجلُ ليست ضحكةً. أيتها الطفولة السريعة.

*

سيدةُ الطفولة، شرفةٌ ومدى القرميد المهيب، شجرةُ التين الكبيرةُ، والحصادون بعيداً وأنفاسُ الوادي.

الطفولةُ السيدةُ تضحك، الفستانُ قبابُ ألوانٍ، أوراقٌ تحمي الوردةَ المقفلة، وردةَ اللحظاتِ المزقزقة والمتنهدةِ في الليل.

سيدةُ الطفولةِ النَّدَى، الناعمةُ كصبح باكر.

كَمْ يرقصُ العمر، يدورُ. كم يخلعُ الزمن قبعتَهُ، يجلسُ كحارسٍ متمهِّل، ثم أسبقُكِ إلى الدخان.

تضعُفُ الذاكرةُ والثُّفل في فمي، الثفلُ في الفمِ وسيدةُ البياض تستقبل.

*

سيدةُ البياض بين ندف القطنِ، فقاعات الماء، وهجِ النور.

سيدة السَّواء، اللحظاتِ المتشابهةِ، التراخي، وقوعِ أي شيء قرب أيّ شيء، التمددِ على الطاولة الكبيرة، النورِ من فوق ومن الجهات الأربع.

سيدةُ الحضورِ الأخير، الحضور المليء بلا معالم.

سيدةُ الكلِّ النورانيِّ، انعدامِ الظلال.

الموتُ السيدة!

مجد امرأة وحيدة

ـ لقد تأخرتَ البارحة؟

ـ كنت أكتب عنكِ...

«عليا» في البيت إلى المرآة. عليا اثنتان. هي وهي. وابتسامةً سرّية تتبادلان. غرّة الشعر كما في الثلاثينات. ولمعة العينين وفم هادئ حازم. عليا إلى نهضة جسدها. الروح تُحرّك مملكَتها كما في الصّبا الأول. تولد من جديد كما النور في الصَّباح وكلُّ نهارها ظهيرة. عليا إلى الأشياء الصغيرة. وعليا إلى الناي. موسيقى إلى موسيقى. اللحظة تضج. تتناغم بانسيابات البعيد ومختصر الحاضر. وعليا لها ليلةُ الناي والسيِّدُ الإيقاع.

عزف قديم لا يزال حاضراً. غرفة البيت القديم. تحوطه غيوم الماضي. الأرض بيضاء. فوق بياضها محطاتُ بشرٍ داكنة. كانت النوافذ تحفظ اللهاث وحرارة الأشواق وليلة الايقاع لعليا.

أبٌ يوقّعُ وابنته تعزف ولا من يسمع. يعزفان يسمعان كيف بالموسيقى يودِّعان. النوافذ تحفظ أيضاً أرواح الأجداد. ليس من رحيل للمقابر فصمتها بقاء. موسيقى الوداع والليلة لعليا. تعزف وتسمع. تحفظ جيداً. تحفر في الذاكرة زاداً لما سيأتي.

حاضرٌ هو العزف القديم كأنه يحدث للتوّ. الأب يجالدُ لا يزالُ أحزانَهُ الحبيسةَ لتعزف عليا وتسمع وتحفظ. قليلاً ويأتون ليدفعوا القديم إلى المنافي. المكان لا يتَّسعُ لزمنين. وتبقى الغابات شاهدةَ الصعود والهبوط. شاهدةَ الإقاماتِ والمنافي. يأتون فاحفرا وداعَكما. أيها الأبُ أيها الإيقاع. أيتها الابنة أيتها الناي. وإنّها ليلةٌ لعليا.

الريح. والأشجار تحني هامَها للريح. القمر يشق ستائر الغيم. ينظر قليلاً ثم يخبئ وجهه. اتجاهٌ وحيدٌ إلى المنافي. الإيقاعُ في الحديقة والنايُ في الزاوية الأثيرة. الموسيقى تسرّبت من النوافذ. دخلت في ذاكرة مهاجرين كالريح. كالريح يركضون. يلتحفون بقايا دفء الطفولة. يودعون تراب الوطن. خطوات على الأرض الخرساء. الثلج يخفي المعالم. عليا والأبُ. الأبُ وعليا. يركضان يمشيان يرتاحان قليلاً. ليلةُ الناي تركض تمشي ترتاح. ويمشي الجميع حتى المكان المسمّى حدوداً.

من ينظر إلى الخلف يستحِلْ تمثالاً. ميدوزا هي الوطن. عين الوطن وحدقة الذاكرة. كانت تماثيل الحنين ترتمي واحداً بعد واحد. الشمسُ حفرتِ في جبهتها ليلةَ الناي حارةً. إن الوطن موسيقى. الوطن كل شيء. الموسيقى نبض الأشياء. والموسيقى هي ما تبقّى. لعليا التي لعبت. ووقت إلى المرآة. وحرّكت مملكة الجسد. في مكان المنبَت الأول. الجسد يحمل موسيقاه. يستقرئ ليلة الناي. عن وهم مكان جديد. وإقامة في الدوائر والمرايا.

ـ ماذا؟

ـ الحق معه. انه يتألم.

دائرة المهاجرين. دائماً في المكان المهجور. المكان دائري. مزرعة متروكة. بقايا معمل قبل عصر الصناعة. البناء دائرة. المكان محاط بسور مستدير. ليس من زاوية. الزاوية هي الإقامة. دائرة المهاجرين معبر. مستراح لاختيار الاقامات الجديدة.

في المكان الدائري تنزلقُ الذاكرة. لا تستطيع التعلّق. تحفظُ ماضيها. تحسُّ أنكَ مهاجر. لا تنسى أنك مؤقت. ونومك دائماً

مشروع يقظة. لا أحد مات في المكان. الموت إقامة. دائرة المهاجرين ليست للإقامة. حركة دائمة في دائرة المهاجرين. حركة الطعام وحركة الذاكرة وحركة الرحيل. البرْدُ سيّدُ الدائرة. حليفُ الريح الطاردة.

ذاكرة عليا تعبُر. تلمح قليلاً. اللمحُ يضيء: دائرة المهاجرين دائرة الشطرنج. الرجال يستندون إلى الجدار المستدير. الرجال يجلسون إلى الشطرنج. يلعبون. أفكارهم تنزلق على دائرة الجدار. تذكر عليا الولدَ اللَّمّاح. الولد يدور حول الجدار حول الشطرنج. ينتصر الولد. يحطم ملوكَ الشطرنج ملوكَ الدائرة. الولد يحصد النصر. يعبر الغيمُ في ذاكرة عليا: ألا يزال الولد في دائرة المهاجرين. يدور وحيداً. ينتظر مهاجرين وشطرنجاً وملوكاً؟ هل الولد مهاجر؟ هل الولد دائرة تحصد الأشياء وتطردها من أبديتها؟

أفلت المهاجرون من الدائرة. وصلوا إلى المنفى وأقاموا في الذاكرة.

ـ كفكِ؟

ـ انظر الخط جيداً. سأموت هذه السنة.

وتريدين بكائي. عليا. الدمعةُ اعتادتْ وأعتدتُها. قلتِ ذاتَ مرةٍ: نقيس حرارتها. دمعة للبعيد ودمعة للقريب. تريدينها دمعتي فكيف؟ قلتِ لا تريدينها. . . الدمعةُ تطرقُ بابَ الجفن. تدفعُهُ عنوة. ويهطل المطر في البراري. تخجل الشمسُ من طلعتها. وتخبئُ السنابلُ بهجتها. والعناقيدُ تسترُها أوراقُ الدوالي. ألعنةٌ هو البكاء؟ قلتِها عليا. تبكينَ في السرّ. بعد منتصف الليل. تمرضين داخل جدران أربعة. وعند الإعلان تعلنينَ نهضَةَ الجسد. والأجراسُ تسمعينَها أجراسَ عيد. وقلتِها عليا. ليهطل المطر حرّاً في البراري. وليشرق الصيفُ شمساً تتهادى. تتألقُ السنابلُ. تعرضُ العناقيدُ وجناتِها الحمر. ويضحك الأطفال. تريدين بكائي؟

وقلتِها عليا. كان الترابُ الجديدُ أحمرَ. والترابُ القديم أصفَرَ. وبينهما الجسد. هكذا أوصيتِ: ترابٌ ثم جسدٌ ثم ترابُ الذاكرة فوق الجسد. كانت المراسيمُ يرسمُها الراسمون وسمعتُ ما لا يُسمعُ: كانت ليلة الإيقاع. الجسد الناهض يرتمي. الذاكرةُ تفتح خزانتها للريح. تحملُ موسيقى الإيقاع والناي إلى بحرِ الأبِ محطةً. إلى البيت القديمِ إقامةً. تعبُر الحدودَ بلا جواز. إلى حيث البدء.

عليا. أرضٌ لأرض. موتٌ في تربتين. بين ترابين. وموسيقى تسكنُ بيتَ المبتدأ.

ـ تضحكين أم تبكين؟

ـ الاثنان معاً.

نحزنُ تحت غلاف الطبيعة. نلبسُ قبّعةَ الحياة وندفأ. وهي القبّعةُ تُسقطها الريحُ أو نُعطيها لأبناءٍ يأتون. نُهاجرُ من الأرض إلى الأرض. هيّنَةٌ هيَ الهجرةُ. صعبةٌ هي الهجرةُ. من الجذور إلى الفَلَوَات. من الموسيقى إلى الصدى. من الحركة إلى الذاكرة. ومن الاتصال إلى العزلة.

عليا تغادرُ. من دائرة المهاجرين تفلتُ. من دوّامة التيه إلى خط التيه. عليا تحت السماء الصامتة. فوق الأرض الخرساء. تتكوّم على ذاتها. تتأكد من الجسد. وقوافلُ إلى محطات الجوع. زمنٌ يبحث عن مكان. كان المهاجرون يعتادون الهجرة. يلاعبون المآسي. عند أطراف القرى ومطلاّت المدن. الجوع رفيق الطريق. ومراتبُ الجوع من الكفافِ إلى عتبات الموت. المهاجرون يجيبون الجوع السائل بتأجيل الجواب. أو بكذبة الجواب.

لا ضوء. لا حاجة إلى الضوء في المعسكر البائس. العائلة اثنانِ إلى طاولةٍ من صفيح. أنسالُ الضوء تنسحبُ على الوجهين. لا يُعرفُ من أين تأتي. يختفي الشحوبُ في الظلمة. الأبُ والابنةُ يحاولان التفاؤل بالصوت. كلٌّ يرحم الآخرَ. وكلٌّ يتلقى الرحمةَ من الآخرَ. ويتظاهران. هوَ آخِرُ الليل وطاولةُ الصفيح المائدةُ. انتهى أوانُ العشاء الوهمي أيتها السيدة الصغيرة. عليا تنتظر فنجان ما قبل النوم. الأب يحضّر الشاي. بقايا من جَزَرٍ يابس. تنحلُّ في الماء الساخن. الشاي لعليا في آخر الليل. قبل النوم. أو قبل السهاد السرّيّ.

وجهان متقابلان. يلبسان قبَّعةَ الحياة. وجهان لزمنٍ يبحث عن مكان.

ـ الاقطاع أفضل العصور.

ـ إذا كنت إقطاعياً.

ليلُ السهادِ أم صباح الذاكرة؟ الشرفة. والكرسيّ على الشرفة. والشمس. وظلال الكرسي. خطوطٌ واثقة. العصفورُ حيويٌّ عند الشبّاك. وعليا تستيقظ. عرسُ النور في العينين. تطلُّ على منبسَط

الخضرة. على زرقة البعيد عند الأفق. يأتي الفتى ذات فجأةٍ. كما قالت مدبّرة البيت العجوز. كما نَفَت المعلمة الرصينة وزمّت شفتيها. كلُّ صحوة كانت صباحاً. الأيام تمضي بكشف الكتب. بكشف الطبيعة. والاغتسال بالموسيقى.

في آخر المنبسط الأخضر فتاة صغيرة. تكتشف عليا أن الثياب تفرّق بين صديقتين. تلتقي الصديقتان. تغضبُ المعلمة الرصينة. ما الفرق بين الصداقة والرحمة؟ سأَلَتْ عليا. وأجابت: إنّهُ وَهْمُ الأعراق... هلِ العرقُ ثوبٌ؟ ومتى يكون العرْقُ موسيقى؟

عليا السهادُ تتوسد الكتب. لقد حملَ القدماءُ مدوّنات أساطيرهم. وفي المعسكر. بين أشلاء الأشياء. فروٌ فاخرٌ وأزرارٌ تشهد على المنشأ. عليا. بقيَ لك الحزن الوثير. تهريب الكتب الأسطورية. وسهادٌ بطيء. وبقي لعليا صباحان. صبَاحُ الذاكرة وصباح المنفى. فنجانُ آخر الليل يأتي فنجاناً لأوّل النهار: قطعة السُّكر الفريدة تتدلّى فوق مائدة الصفيح. عليا تشرب شاي الصباح بنظرة سكّرية والأبُ يأنسُ للاهتزاز. فنجان الصباح لوهْمِ الأعراق الآمنة في كتبها. وعليا تمارس البقاء والمشاهدة.

ـ الكتاب للنشر.

ـ الكتاب للحبْس.

الكتاب ليحفظَ الحروف. ليحفظَ المعاني في الحروف. من زمن الأشجار الطوال والسَّغْيِ الرَعويّ. وحفلات الصيد. واحتفالات الكسل. والكتاب مرآة الأصول. في الثوب بين الطيّةِ والطيّة. في زاد الجوع الأخير. الكتاب حِمْلٌ أخيرٌ بعد أن يُرْمى كلُّ شيء، ويُرمى الكتاب إذ يرتمي الجسد. تأخُذُ الروحُ المعاني. تأخذ جوهرَ الكتاب. والكتاب ماضي عليا ومستقبلُ عليا. أمانُها في الضياع. وصخرتها في بحر الهجرات.

عليا في المعسكر فتاةُ مكتبة. وفي زاويةٍ هي المكتبة: طاولةُ الصفيح. صناديق خشبية. وكتب اعتنت بتجليدها فتياتٌ أصبحنَ سيدات ثم جدّات. وجهان إلى الطاولة. عليا وجدَّةٌ مهاجرة. تبدو كمن ينتحل قيادةً روحية. تمسك عليا والجدّةُ بالكتب كعرّافتين في قبيلة قديمة. كتبُ الماضي مقدسةٌ. والأيدي الفانية تمتدُّ إلى مجامع الكلام المستمر. كما إلى أشياء نورانية. إلى شيء قابل للكسر. للاختفاء.

في صحوةِ المعسكر. تُوزَّعُ الكتب للقراءة. يتقدّم المهاجرون إلى عليا وإلى الجدَّة. كما إلى المذبح للتناول. الخطوات بطيئة. العيون شاخصة. واستقبال الكلام يبدأ قبل أن يأتي الكلام. كلبٌ

أعرج ذو فروٍ وسخ يتقدم مع القارئين. هادئ كما السلام. ويحرك ذنبه في حضرة اللحظة.

ساعة المكتبة. ساعةُ بدءِ القراءة. والساعة هي مفتاح المطلق. والمكتبة معبد.

ـ صورتكِ جميلة.

ـ إنها صورتهم.

صورة عليا: تبدأ الرؤية من أَعلى. الشعر الجَعْدُ كما أصلُ الشَّعر. كما هو تحت الجلد. في متانته. وفي صلب جسده في الجسد. الشَّعرُ في وحشيته المدجّنة. حشيشٌ بنيّ. عشبٌ بين الرّواء واليباس. نباتٌ في قمة نضوجه. قبل بدء الانحدار. شَعْرٌ بنيّ. يتلاقى فيه سواد القبائل الآسيوية المنقرضة مع شقرة الآتين من مكان في البحر. واحترقت مراكبهم.

وحشيٌّ مُدَجّنٌ. ذو مفرقين. لكل مَفرقٍ عقفة. شعرٌ لصيقٌ بالرأس. أكثَر ما يكون الالتصاق. كأنّ قبعةً كانت فوقه وأسقطتها الريح. لم تعبث الريحُ بشعرٍ ليست الأجواءُ أجواءَهُ، بل يستمدُّ تلويحتَهُ من ذاكرة الرأس، من خيالاتٍ حبيسةٍ، لماضٍ مضى.

جبهةٌ متوسطةٌ لعليا. مُقْدمةٌ ومتراجعةٌ في آن. جبهةٌ تتقدَمُ إلى ماضيها، توحي لك بماضيها. يكتنفها ضباب شفاف. تستشعر الريحَ الباردة. تصفر من ممرات الوديان. وتعلو. تفرّعُ أغصان الشجر. تطوي ضعيفها. الريحُ فوق شرفة البيت الأبوي. تطلُّ على شتاء الكائنات. على عصْفِ الولادة. جبهة عليا توحي. تتقدم. تتراجع إلى حاضرها. تتغرّب. تنحبس في مساحة الرأس. تكتفي بدورها كجبهة جميلة. كعلامة. تأنسُ بالتراجع. بالعودة إلى الشرفة القديمة الحاضرة. وتهنأ.

تحت الجبهة العينان. قالوا نافذتين للروح. الروح امتدادٌ لأوَّلٍ سحيقٍ. لا يُطال. عينا عليا كل الألوان. أزرق عند الثوب الأزرق. وأسوَدُ مع الأسود. وأخضر مع الأخضر. عينا عليا لونٌ سري يتظاهر بالألوان. يعلن نفسه في الذاكرة التي لا تُرى. عينانِ لعليا. وتطلُّ الروح. بل أرواح الأحقاب. كانت الأعراق تتصارع. ثم تتلاحق. وكان الميدان لا يهدأ. يعبر العابرون. يتركون بعض الاستكانة والسكّان. القدماء يتدبرون حياتهم. في الدائمِ الصعبِ. في المؤقت السهل. يحنون قليلاً للجبروت. ثم يستقيمون. يريدونَ أَنْ يبقوا هم هم. في الدائمِ المصطرَع. وعينا عليا تعلنان القليل اللماح. والأهداب تملّ التحديق. تغمزان للعينين أنْ تراجعا إلى الذاكرة. إلى اللون السري.

ولعليا خدان. ككل البشر. لكن الأنف والفم والذقن تحضر بفرادة: قليل من الخوف. ظلال من الحزم. شبح ابتسامة أنثوية. ليس أنثى الجسد الواحد. بل سلالة الأنثى. توازي عالم الرجل بالمطلق. عنق عليا جيدُ تلميذة في السابعة عشرة. الثوبُ يبدأ بياقة عريضة متهدلة. كياقات العرافات المنقرضات. أو الراهبات المتقشفات قبل أن تأنس الكنيسة إلى سلطتها. وللثوب مفتتحٌ في أربعة أزرار. اثنان منهما معقودان. كأنه الجسد. وكأنها الروح. يعلنان نصف الحضور للبقاء. نصف الغياب للذاكرة.

نصفٌ في المكان. ونصفٌ في الزمان. عليا. وصورة عليا تفاصيل. لا تجد الكلام. وصورتها هالة. لا تعرف كيف تنزع عينيك. كيف تسلخ روحك. تعود إلى عالم أعدادك الحديدي. تطرق بقدمك على اسفلت المدينة. وترى العناوين الجديدة للمصطرع. في ركام مدينتك. تهدمت أو تكاد.

- إنه يشرب الماء.

- إنه يغرق في الماء.

الأب وعليا. ثم عليا وحيدة. وفي البين يموت الأب.

هي رحلة في متواليات رحلات المهاجرين. الأب وابنته

يتساندان. أورقتِ الريح تجاعيدَ في وجه الأب. وأزهرت تعباً. كانت عليا ترى. وتتهيأ. جسدُ الأب جسدٌ. كمٌّ مترهّلٌ من العضويات. محطةٌ للروح لا تصلح للإقامة. ولكن المهاجرين لا يمرضون. انهم شموع. فإمّا تضيء. وإمّا تنطفئ. جسدُ الأب يتهيّأُ للانطفاء.

الموت إقامة. لكن المهاجرين لا يقيمون. فكيف يموتون؟

خارجون من الحياة اليومية. من الموت اليوميّ في الوطن. راحلون إلى أيّ مستقرّ. ولمّا يصلوا. طَلَبَ الأبُ ماءً. شربَ الماءَ. قال: الماء حياة. كان المهاجرون في سفينة. من بقايا الحروب. يعبُرون بين يابسة ويابسة. كانت إقامات البشر تأْفُلُ. وتبقى إقامات الأسماك. والأعشاب اللزجة. انطفأت شمعة الأب. المهاجرُ الشمعةُ يكسر قانون الموت ـ الإقامة. غصت عليا بدمعتها وتحلّق المهاجرون. فوق سطح السفينة. بين فلوات البحر.

الصلوات من كتب متعددة. الحزن واحد. ورب المهاجرين واحد. يتعهد أحزان الأرض. وهو فرحٌ يتعدّى الجسد.

الميت على خشبة. الموت إقامة والمهاجرُ لا يقيم. الميت إلى طرف السفينة. الأفق يفتح ذراعيه. صلوات وأدعية وأغان. موسيقى وَجِلَة. وتلقّت اللجّة موعودَها. الماء الماء. والماء مع

شيء واحد. أفرغت عليا حفنة تراب في البحر. فوق الجثة. فوق جثة الماء. وماء الجسد.

وعليا وحيدة والكتب ما تزال. قصة جديدة للذاكرة. لم يمت الأبُ لأنّه ليس مقيماً. الموت إقامة. الأبُ هو الماء. في البحر. في الغيم. وفي ندى الصباح.

- نعيش

- نعيش ليبقى أمسُنا.

معسكرٌ للمهاجرين أو مدرسةٌ داخلية. عليا قالت الاثنين معاً. وأقامت.

الأدوات أكثر تنوّعاً وترتيباً: طاولات وأسرّةٌ وحديقة. لكنَّ الماءَ قليل في الصيف والدول تهتم بحروبها. الماء قليل. وتفتحت ذاكرة عليا. كان الأبُ. قميصُ الأبِ دهريّ متّسخ. قميصُهُ الوحيد. جمعت عليا ماء وأقنعت الأب. عاري الصدر ينظر مراحل الغسيل وينتظر. القميص في الماء الساخن تشقق. صار طابة من قماش. ازداد الأب برداً واجتمع المهاجرون. يدفئون باجتماعهم صدرَ الأب. ويبكون القميص. وعليا وحيدة.

وعليا زهرةٌ يليق بها التألّق. الماء قليل. والمهاجرون يستغربون تألّق عليا.

وعليا تعهدت جمع بقايا المائدة. تجمعُ ما تبقى من ماء في الأكواب. في كل أسبوع تغتسل. وتتألق عليا. تتدبُر أمرَها وتتألّق. تتعهدُ المكتبةَ أيضاً. وتفتح نوافذ الذاكرة.

ـ الزوج وطن.

ـ الزواج عزاء المهاجر.

عليا في الميناء. الميناء ليس وطناً. انه مشروع السفر ومشروع الإقامة معاً. وعليا قررت إقامة ليست إقامة. هنا الناس العابرون. ذوو الأصول المختلفة يتعارفون هوناً. أمناء لجذورهم القديمة.

عليا تتزوج في الميناء.

كانت عائلة في غرفة الاستقبال. وعليا نزيلة العائلة. وكان الرجل يزور. عيناه تحيطان بالجلوس. عينا عليا تتقاطعان في الرؤية. تلقيان النظر مداورة. تنكسران عند حدود أشياء الغرفة. وإلى أذن عليا اليسرى قرنفلة من الحديقة البحرية. الرجل له مكانة الشجرة وإطلالتها، وعليا قرنفلة في محيط الشجرة.

النزهة الأولى والوحيدة في ذاكرة الغزل، عليا والرجل في الحنطور. دائرة صغرى في المدينة. ثم دائرة كبرى حول المدينة. قلب وأطراف. صوت الناس القريب وضجتهم. صوت شجر الجبل وموج البحر. أفقان. على الداخل. على المدى البحري. وبينهما بشرُ الميناء. وعليا قبلت واستقبلت.

كيف تخرج الروح من الروح؟ كيف تكون للجسد روحان. طقسان. قديمٌ للوطن الجذر. وجديدٌ لوطن الزواج؟ وكانت عليا حالتين تتقاطعان في عيني الزوج. وكان بيتان يتقاطعان في عيني عليا. واحد للمنشأ وآخر هو بيت الطاعة. وعليا تطيع. وتطلق لعصيانها عنان الذاكرة.

عليا وبيتٌ وشبّاكان، الميناء يعلن السفر ويعلن الإقامة. كتب عليا مع عمدة المهاجرين. ومعنى الكتب في القلب.

الرجل بلا عليا. ثم الزوج مع عليا. يتغير قليلاً قليلاً ليصبح سيد الجسد المطاع وتابع الروح المسحور... الليل للجسد وللإسراء. تسري عليا والزوج يتعلق بشعر الساحرة. يرى خطوطاً للسارين يستعيدون فيها هجراتهم. انها السماء الزّلقة. وهي الأرض زلقةٌ. وكنا نحسها مكينة وثابتة. الأرض شاهدة الهجرات. والاقامة للحجر وحده. الروح لا تقيم، انها تسري من

أصول الأحقاب، إلى فروع الأحفاد المتعددة، ودائماً تأنس إلى الموانئ.

عليا في النهار تزين شرفتها بالزهر النادر، تحضر مائدة الجسد ومائدة الروح. وعليا تتعلم اللغات. تبحث في نكهة الكلام المتعدد عن لغة الهجرة الموحدة.

وعليا في الليل، تعلن صبح الجسد. تسرج سريرها الزوجي للرغبات الطينية. تسرجه لاسراء الروح في الحلم، وعليا جهدت في نهارها والليل. تكرس طقوسها في المكان الجديد. وتأنس إلى ميناء الزوج.

الزوج في النهار ينظم عمله كأقصر ما يكون وقتاً. وأقل ما يكون علاقة. يتعمد اختصار أمكنة النهار ليقيم أطولَ ما يكون في بيت عليا. في جسدها، وإلى سريرها المسرج.

والزوج في الليل يخرج من ليله إلى ليلها، من أحلامه المحدودة إلى صهوات حلمها العالمي كاسر الزمان. هي المرأة الفريدة. وعليا حالتان: المرأة المطيعة تعطي الصدارة للزوج ولشؤونه الصغيرة. وهي الساحرة تأتي بالزوج سعيداً إلى عالمها الأثير. يستقرئ. يتعلم. ويدخل ضباب الآخر. ليأنس الجسد بالجسد. وتتلامس الروحان. روحه المتعبة تتبع روحَها الفتية في عوالم لا تنتهي. . . لم تقل عليا ماضيها وتفاصيل وطنها الأول.

كان الماضي يحضر قليلاً قليلاً في البيت الزوجي. ويتجانس البيتان: المبتدأ والحال.

أهل الزوج في النهار يغضبون من ولدهم المأسور. يلعنون الساحرة الآسرة، ثم أهل الزوج يحاولون إعادته. بالترغيب والتحنان. ثم يستحلفون ويستجيرون... ما له وللإرث؟ ان الزوج يستبدل جذوراً بجذور. والساحرة عليا من جديد تبنيه. تزرعه في ذاكرتها المستعادة. في بيتها الأبوي. فارس أحلام من حاضرها إلى الماضي.

أهل الزوج في الليل يأسون لطفلٍ. تغيَّر مكانُ طفولته. لفتىً يتشكل من جديد في بيت الساحرة. ولرجلٍ انتسب إلى ذاكرة المرأة. وقطع حبال نسبه.

أهل عليا في الذاكرة. حاضرون في معاني الكتب وفي الضباب الليلي. توحَّدَ فيها الأهل. وعليا امرأةٌ وحيدة. كانت تجد مرآتها في أصوات البواخر. في إقلاع الطائرات. وتجدها أيضاً في أرجل الحفاة الباحثين عن مكان.

عليا الوحيدة. وعليا الروح الهائمة فوق الخرائط... هنا كان لها مكان. من هنا رحلت. إلى هنا وصلت. وعليا سيدة الخريطة الأولى قبل أن تأتي السلطات لترسم حدوداً، قبل أن يقهر شعب شعباً. ثم يأتي قاهرون جدد... عليا حقيقة الحجر الثابت في

الروح. وَهْمُ الجسد المتنقل في الأمكنة، والمتنقل في نبض القلب، في ضخ الدم في الأوردة... عليا حقيقة البداية. الجسد تحمله ويحملها. ترتبه كمن يرتب سريراً قبل النوم وبعد. كمن يرتب راحلته ليرحل...

- هذه المدينة الجميلة

- نصفها رملٌ ونصفٌ ماء

المرأة في المدينة. المرأة في المرأة. هل المرأةُ مدينةٌ يا عليا والسكانُ أشباحُ الذكرياتِ تسكنُ فيكِ من أمكنةِ الهجراتِ عبرَ زمانٍ يختصرُ الدهور؟

عليا في المدينة. مدينةٌ في مدينة. والشارع يعرضُ نفسَهُ. المارّةُ يمشون في استعراض البحث عن الرزق. البحث عن الذات. وتصفيح الذات القديمة.

شمسٌ ولونٌ برتقالي على الوجوه. في الواجهات. البحر يضخُّ ألوانه في الفضاء العليّ. وعليا تمارس نزهتها. كمركب في بحر. كعصفور أعمى في فضاء الوجوه الغريبة.

من تصادقُ عليا وأصدقاؤها يسكنونها وتسكنهم في رحلة كل

يوم؟ تستطيع إحلال الثلج في الهاجرة. وإنبات الورد تحت الصقيع. عليّا سيدةُ نفسِها الجمعيّةِ. وعليا سيدة الكائنات. تقبلُ ما تقبلُ وترفضُ. وتنتخبُ هوامشَ قليلةً إلى متنها الدهريّ.

قالوا غريبةً. وقالوا مقدّسة. وقالوا هيَ الشيطان الجميل. وعليا تبتعد وتقترب. وتختار وتطرد. عليا بلا شبيه. وتجد شبيهها في تشكيل تستمدُّهُ من ألف وجه ووجه.

وهي المدينة. ناسُ المدينة ألوان. أبنيةُ المدينةِ البحرية تشكيل هندسي لمدن الدنيا. وبيت عليا بيتٌ رعويٌّ على شاطئ البحر. متى أرادت عليا ترى إلى البحر سهلاً من السنابل. وترى إلى الأشرعة أشجاراً. وإلى النوارس عصافير.

ـ أصبحتِ أماً.

ـ إنها عتبة الوداع.

أيمكن لامرأة وحيدة أن تلد؟

عليا أدخلت زوجها في الطقس. أجلسته على هامش وحدتها. لكن عليا حملت وأنجبت.

امرأة وحيدة تلد؟ الطفل يكسر الوحدة. شيء منك ينفصل

عنك ويدخل في الحوار. عليا التي تحاور إلى داخل صارت تحاور إلى خارج. أتنكسر وحدة عليا؟

عليا قالت إن الولادةَ امتحان لبقاء الذاكرة. وإن الولادةَ خطرُ الحضورِ وانفصالٌ عن الماضي. وعليا تحب طفلها.

وقالت عليا إن الإنجاب بدءُ الموت. وبدأت عليا تحضّر نفسها لرحيل يقترب أو يبتعد لكنه سيأتي. كسرت عليا قانون الحوار مع الطفل. ربطت الذهن الطفوليّ بذاكرتها القديمة. مدت حَبْلاً بين الطفل والأحقاب. وصبَّتْ في تعقّله الأولِ مناظرَ بيتها الأبوي وصورَ الأجداد. وعلّمتْ عليا طفلها أن يحمل في ذاكرته أشخاصاً وكتباً وأشجاراً وإقامات.

وعليا التي تحمل طفلها عوّدته قليلاً قليلاً أن يحملها.

عليا اثنتان. هي وهي. هي وطفلها. عليا تصلُ من الواحد إلى الاثنين وتحافظ على الواحد. تعبتْ عليا ونجحت وابتسمت. واستعدّت لموت الجسد.

شخص وحيد في هذا العالم يبقى. سترحل عليا ويبقى ابنها ذلك الوحيد.

ـ أتعلّقُ بكِ؟

ـ تعلّقْ بنفسك.

الطفل يفتح شحمة عينيه كسولاً. يفتح دائرة فمه الجعداءَ راغباً. والطفل جسدٌ من جسد. ولا يبقى الطفل طفلاً. يبرهن حركته الداخلية بالرموز. ويدخل رمزَ الكلامِ فيفنى كلامُه.

ـ أيتها الأم الوحيدة. وحيداً أعانقك ووحيداً أغادرك. قلتِ حَبْلُ النّسبِ لا يمتدُّ. وقلتِ إنهُ يلتفُّ في الرأس، وإن الأنسابَ هي نحنُ. كان الطفلُ يتنقّلُ. وقلتِ إنّهُ أحقابٌ تتنقلُ. طفلٌ وحيدٌ ويختصر.

كيف يا أمُّ أنمو من خيالي؟ أأنا الشجرةُ وأنا تربةُ الشجرةِ والجذور؟ وكيف أتعلمُ منكِ ما أتعلمه من البحر. من التراب الخصيب ومن الرمل العاقر؟ كيف أحصد العالم وأُدخِلهُ في نفسي. أختزلُ من أعراضه إكسيرَ الحكاية الوحيدة وسرَّ الهجرات؟

ـ أيها الطفل المعذّبُ في غربته. ليلُ الانقطاع صعبٌ. وأنتَ سارٍ إلى صُبحِ وحدتك وهذْيِ الاكتفاء...

كنتَ تصرخُ كمن يُفصدُ وريدُه. يتقطَّعُ ما بينك وبيني. تبعُدُ تبعُدُ في المتاهة. تأتلفُ من حولك أُمّهات الأحقاب. وأنت

تتعرّف إلى أحضان متعددة. تتلمسُ درجات الحنان والحنايا لتصبح أنت حضنَ نفسك. تهنأ بوحدتك. وفي وجهك تبدو ملامحُ أحزان الهجرات.

عليا أمٌّ. وعليا منذورةٌ للأحقاب. كي يتواصل القدماء.

وعليا المنذورة حققت الرسالة واستراحت. وعليا الأمُّ تتعذب. كان الجسدُ يطلبُ الأمومة. وعليا قاهرةُ جسدها. فصَلَتْ طفلَها عن جسدها. حمَّلتْهُ وحدتَهُ الجديدة. كتاب الأجداد.

ـ أريد أن أكتب.

ـ أريد أن أقول.

كتاب الأجداد. قليلُهُ كتابةٌ وكثيرُهُ قول. عليا تقول كلامها لا تكتبه. الكلمة الملهوجة تحمل حرارة الجسد. نكهة الإرث الأول. بداهة الحقيقة الكامنة... والكلمة المكتوبة صورةٌ رسمية. حضورٌ مقبولٌ للمعنى. وهي المعنى محدوداً. عليا تقول لا تكتب. كان كلامُها أغنية. دندنة في هزيع الليل الأخير. كلامُها حركةُ اليدين. إِمالةُ الرأس والبسمة. لمعة العينين تشيران إلى ما لا يُشار إليه. ولا يَفهمُ عليا إلاّ الوارثون.

أكتبُ عنكِ عليا. الكتابةُ ظلال عصافيرك المهاجرة. زَبَدٌ يهمُدُ بعد انحسار موجكِ. اشاراتٌ وضعتِها على كتب الآخرين. على لغاتهم.

عليا. قولُكِ جسدٌ ومعناك مختصرُ الهجرات.

ـ مهاجرون جدد

ـ أمتعتهم المحمولة، مرآتي...

بدأ الميناء يحتدم. اللغات تعايشت وتهادأت وسلمت وحفظت ماضيها. ثم اللغات بدأت تتصارخ. صارت اللغة ترى وجودها في الوحدانية وطمس الغير. وصارت اللغة ترى بقاءها في القرابات وفي توسيع الدائرة. اللغات تتصارخ. الميناء يحتدم. والمدينة تصخب، تصيبها الشروخ.

عليا في الميناء. أحست بالزلزال المقبل. قالت إنه مرض الإنسان القديم يعاود ظهوره. كلمات الحوار إياها اكتسبت تفسيرات صدامية. وجاء فيضان القادة الذين يغتالون بعضهم بعضاً. ومن يقدر على الاستمرار يكن موته أكثر صخباً ويستتبعُ دماءً احتفالية. جاءت الشروخ لتجعل من البيوت الواطئة أكثر

أماناً، ومن الصعاليك أكثر بقاء. السيف المعاصر يحصد الرؤوس المرتفعة والكلامَ المرتفع والعقلَ المرتفع. صارت الأمكنة أكثر فضائحية. صارت الأسرار الشخصية تهمة... وعليا حصّنت أسرارها وخافت على استمرار الأحقاب.

إنه موسم الاحتدام في الميناء. زمن مواليد الهجرات. عليا تراهم من الجنوب، من الشمال، ومن الشرق. عليا ترى وجهها فيهم... يتصارخون ويتقاتلون ويزدادون عداء. وكانت عليا تراهم موحدين في قلبها. استمراراً لماضيها.

ـ لقد تأخرتَ البارحة؟

ـ كنت أودّعكِ

زلزال المدينة. بل هو رجعُ الصدى. تقول عليا. إن اللغة ترخيم. ترخيمٌ بلُهاثٍ وترخيمٌ بصراخ. اللغةُ خلافٌ والكلامُ نهايةُ حرب أو بدء حرب.

عليا تشاهد خجلاً تحت رداء العسكري. علاقةً مائعة بين الإنسان والأرصفة. وعليا تقول إن المدينة تغيّر إيحاءها.

عليا تراهم مهاجرين ينطفئون في المدينة.

تراهم يستمرون في الزمان. يبطئون إيقاعهم الدهري. المهاجر يتغذى من هجرته. يكتفي بها ويتوحّدان. والمهاجر رسالةُ ماضيه ورسالةُ نفسه في الحاضر.

وعليا ترى نفسها. تنكفئ. عليا كنايةٌ منكفئةٌ أبداً ورمزٌ عصيٌّ لا تخترقُهُ حراب العصر.

وعليا في وداعها وبقايا الحضور. ألقت سلاماً على كتب في الصدور. على حلم في العيون. على ظلال البيوت الأبوية في القلوب الأمينة.

ورأت عليا أن الأرض تزهر نبوّات المكان. وأن كفر الأفكار لن يعم العالم.

ورحلت عليا

وبقيت عليا.

الفهرس

هذا الكتاب

جدّيّ كلّ الجد، يأخذ الشعر بتواضع وتهيّب، بل يأخذه بخوف ورعدة لفرط احترامه له، وهذه صفات عزيزة في أي شاعر(. . .) والشعر عند محمد علي فرحات غاية لا وسيلة، لذلك كانت الحرب اللبنانية، ككل تجربة ومعاناة، وسيلة للشعر، لا الشعر وسيلة لها. وفي هذا نتعلم كثيراً من هذا الشاعر.

يوسف الخال

جريدة «المنار» الأسبوعية

لندن في ١٥ نيسان/ ابريل ١٩٧٨



رسمة الغلاف: شاكر حسن آل سعيد

